لعنة حواء
رواية
إيناس عادل
دار أركان للنشر

دار أركان للنشر

جميع الحقوق محفوظة

تقييم: إبراهيم مصطفي

تدقيق لغوي: رشا عبدالباسط

غلاف: أحمد سامي

للتواصل مع الدار

https://www.facebook.com/dararkan6/

Dararkan6@gmail.com

01022926606

مدير عام
ريهام محسن

مدير إداري
آلاء النجار

رئيس مجلس إدارة
أحمد سامي

لعنة حواء

رواية

إيناس عادل مهنا

الإهداء

هذه الرواية نُسِجت خيوطها الأولى خلال حلمي ذات ليلة بلعبة صغيرة جدًا خرجت لي من الصندوق وهي تهتف ساعديني، وهذا الحلم كان له تأثير كبير لأن أنهض صباح ذلك اليوم لأنسج خيوط الحكاية وأسبح ما بين الحقيقة والخيال، وربما فادني دون أن أدري عشقي لكتابات الراحل العراب "أحمد خالد توفيق" فقد كُنتَ المُلهم والشُعلةَ التي أنارت لي دربًا جديدًا من دروب الأدب، ومن خلالك عبرتُ ذلك السرداب لأوقِنْ أن لا حدود للخيال، وكما خُلقت أنت حاولتُ أن أُحلق، وأتمنى أن أنجح ذات يوم.

إلى روحك السلام

إيناس عادل

المقدمة

على هذا الخيط الرفيع بين الحقيقة والخيال نسجت قصتي حكايا الآم ومعاناة لأشخاص تجرعوا العذاب وذاقوا الموت على يد ألطفِ مخلوقٍ في هذا العالم.

قصص واقعية عن نساء ورطهن خيالهن الجامح ونفسهن المريضة في القتل والتعذيب وسفك الدماء..

الأحداث تدور حول فداء تلك الصحفية العنيدة التي ورطها فضولها مع لعبة نقلتها عبر الزمن لتريها الوجه الآخر للنساء،

تابعوا قصتي لتتعرفوا على أخطر النساء على مر التاريخ!

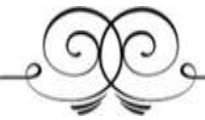

الفصل الأول

(وبدأت رحلتي)

المطر يتساقط بغزارة ضارباً تلك السيارة التي تسير على الطريق الإسفلتي وماسحات الزجاج تعمل كعادتها الكئيبة مصدرةً ذلك الصوت الرتيب (زززييييق تووووك... زززييييق تووووك) في عتمة ليل هذا المساء ذي السماء الملبدة بغيوم سوداء ترعد بكل قوتها غضباً واحتجاجاً وكأنها تتوعد الخارجين في هذه الليلة الهوجاء بعقابٍ شنيع كانت تقود علها تجد مكاناً ما تبات فيه قبل أن تستكمل رحلتها إلى تلك القرية النائية.

بدأت تلعن حظها العاثر ومدير التحرير الغبي ذو الكرش الذي أرسلها بمهمةٍ في هذا اليوم بالذات، ضربت المقود بعصبية وهي تصيح بغيظ:

وما ذنبي أنا؟ وكأنني من قلت لذلك الأحمق أن يقتل صديقه الليلة! سحقاً لك ولصديقك وللمدير معاً

حسناً، يبدو أنكم عرفتم إلى حد ما كيف هي فداء تلك الصحفية العنيدة ذات الشتائم التي لا تنتهي واللسان اللاذع الذي لا يرحم كبيراً و لا صغيراً فاستحقت وبكل جدارة استلام كتابة القضايا التي تتعلق بالقتل والانتحار والاغتصاب وما شابهها..

قضت أعوامها الثمانية منذ تخرجها الى الآن في هذا المجال حتى أصبحت تملك تلك النظرة الثاقبة التي يمتلكها رجال التحري و الاستخبارات فتستطيع أن تشتم الخبر المفجع حتى قبل حدوثه! هي امرأةٌ في بداية العقد الثالث من عمرها وجهها أبيض ذا شحوبٍ طفيف وملامحها صلبة جادة وجامدة اكتسبتها من عملها ولربما تحب أن تظهر بهيئة الصحفية الخطيرة فتبلورت ملامحها وتشكلت على هذا الأساس.

عيناها خضراوان حادتان تقدحان ذكاءً وفطنة وطبعاً لتكتمل الصورة في أذهانكم، ترتدي نظارات ذات إطارٍ ضيقٍ أحمر اللون، شعرها أسود قصير، وهي نحيلة جداً تكاد عظامها تخترق طبقة الجلد الرقيقة التي تغطيه، وفوق كل شيء تدخن كقطارٍ بخاري لا يتوقف للاستراحة بأي محطة! صفات تتطابق تماماً مع عمل لا يتطلب أي صفة من صفات الأنوثة... فأنوثتها انسلخت منها انسلاخًا منذ تعمقها بهذا العمل الذي لا تريد أن تتعاطف به مع الضحية أو الجاني.

هم يريدونها أن تكتب بحيادية وبمنظور الصحافة هي العين الثالثة الثاقبة التي لا تفوت صغيرة ولا كبيرة وها هي على مدار كل تلك السنوات تفعل ذلك كالآلة وهذا ما أكسبها نجاحاً وشهرةً واسعة بالرغم من سنوات عملها المهنية القليلة.

تناست ضربات المطر العنيفة التي تكاد تخترق سقف سيارتها السوداء ورفعت صوت موسيقى الهنود الحمر وكأنها تشاركهم الرقصات المجنونة حول النار اللاهبة.

*****

وبعيداً عن فداء ورحلتها الليلية العجائبية خطى هذا الرجل الى داخل الشقة واستلقى على الأريكة المخملية مسندًا قدميه على الطاولة:

- (لو كانت هنا لضربتني تقريرًا وزجت بي في السجن بتهمة تخريب الممتلكات... هاهاها)

حدث نفسه بتلك الكلمات ساخراً نافخًا دخان سيجاره الخانق ليشكل سحابةً فوق رأسه وحانت منه التفاتة على الورقة الموضوعة على المنضدة أمامه (أنا في مهمة خارج المدينة... لن أعود الليلة)

-وكأن وجودك أو عدمه يحدث فرقاً!

قالها بتهكم واتجه إلى غرفته واستلقى على السرير ليريح أعصابه وجسده المنهك بعد يوم عملٍ شاق، نظر إلى يمينه ثم أمسك تلك الصورة الموضوعة على المنضدة بجانبه و تأملها وعادت به ذاكرته لعشر سنواتٍ مضت... عندما كانت حبيبته الجميلة اللطيفة ذات الأحلام الكبيرة في الدفاع عن المظلومين ومحاربة الفساد، شعر بالحنين لبراءتها وعفويتها وضحكاتها عندما كان يقابلها يومياً، تنهد واستدار رامياً الورقة البيضاء مع صديقاتها في الصندوق أسفل السرير ثم وضع يده خلف رأسه وتنهد بعمق.

ككلٍ مرة تغادر فيها فداء تترك إليه ورقة مسجلة أو رسالة مؤلفة من بضع كلمات تقريرية، رسائل جادة وباردة وخالية من أية عاطفة وكأنها تقدم تقريراً لرئيسها في العمل... نسيت أو تناست كل ذلك الحب الذي عاشاه سوياً فيما مضى وانشغلت بالعمل ولكن أي عمل هذا يمنعك من ان تعيش حياة طبيعية كسائر البشر!

*****

"حسناً فداء يبدو أنها أضاعت الطريق فأخفضت سرعتها وصوت المذياع الذي كان يصيح قبل قليل ولا أعرف العلاقة بين اخفاضه والضياع وكأنه طقوس عبادة لا بد لكل ضائع من ممارستها، وكأن الضائع بمجرد إطفائه للمذياع ستنفرج أمامه تلافيف عقله ليختار الطريق الصحيح!

أخذت تتلفت يمنىً ويسرى بعد أن تباينت لها ثلاث منعطفات ترابية لكن لا لوحة تشير إلى طريق تلك القرية التي تريد الذهاب إليها، اختارت الحل الأوسط مكملةً طريقها إلى الأمام فعندما تضيع من وجهة نظره.. لن تعود أدراجك ولن تنعطف.. خيارك الصحيح هو مواصلة الخط الذي تسير عليه وها هي سارت عليه والمطر يشتد شيئًا فشيئا توغلت أكثر واشتد الظلام والمطر ولم تعد قادرة على الرؤية جيداً حتى لاح من بعيد كوخ خشبي ذو

طابقين سقفه من القرميد الأحمر، انعطفت بسيارتها قاطعةً الأرض الموحلة حتى أصبحت أمامه مباشرة، ركنت سيارتها بتوجس وحذر وحدقت في ذلك الكوخ الذي تضيء نوافذه بلون أصفرٍ باهت وتمتمت بدهشة: ومن عساه يقطن بهذه البقعة المعزولة!

تناست ضربات قلبها المتوترة، استجمعت رباطة جأشها وترجلت بعد أن أحكمت إغلاق معطفها الأسود الطويل حاملةً حقيبتها فوق رأسها تحميها من حبيبات المطر المجنونة وبدأت بطرق الباب بخفة لكن طال انتظارها دون ان تتلقى إجابة!

دوى البرق وتلاه الرعد مجدداً فتعالت ضرباتها على الباب بحنق وخوف: افتحوا بحق الجحيم

تجاهلت الباب أخيراً عندما لمحت أن النافذة شبه مفتوحة، خطت تجاهها واسترقت النظر لكنه يبدو مهجورًا فعلا!

حسناً سنصدق أنه كوخٌ مهجور مبدئياً لكن الإضاءة الصفراء الشحيحة من أين مصدرها خاصة وأن المصباح الوحيد المعلق في سقف الغرفة مكسور!

فداء الآن لم تنتبه لأمر ذلك المصباح، دفعت طرفي النافذة بحذر، رفعت قدمها ثم قفزت داخل المنزل، رائحة عطن ورطوبة شديدة، بل وكأنها رائحة ألف شيطانٍ يبيتون هنا!

ذلك الشعور المقبض الذي ينتابك و الإحساس القوي بأنك مراقب، لكن ممن!

أنت لا تدري حقا!

إن الأماكن المهجورة فعلا تتعاظم داخلها الطاقة السلبية، هذا ما فكرت فيه فداء هاتك اللحظة وهي تجول ببصرها هذا الوكر الجهنمي!

خطت إلى الداخل أكثر بعد أن أغلقت النافذة بسبب برودة الجو و تأملت الموجودات من حولها بهذا المكان المهجور كان الأثاث قديماً جداً و مهترئاً، على الحائط معلقةٌ صورة مصفرة ألوانها لامرأةٍ في العقد الرابع من العمر تقريباً، وعلى الجدار المقابل مكتبة صغيرة ترتص بداخلها الكتب بانتظامٍ شديد وفي منتصف الغرفة تبعثرت بقايا طاولة ومقعدين من الخشب المتهالك.

ومدفئة حطب بجانب السلم المؤدي الى الطابق العلوي، ابتسمت بسعادة وكأنها قد وجدت صندوق كنزٍ ثمين وتحركت بخطوات واثقة ناحية المدفأة فتعثرت ببضع أحجارٍ ومطرقة! تراجعت إلى الوراء بتلقائية وجزع حينما أدركت رسمة طبشورٍ على الأرض، نجمة سداسية الشكل يحيط بها دائرة كبيرة مليئة بحروفٍ وأرقام عربية! وبضع صفحات مهترئة متناثرة بالأرجاء، بل والأقبح من ذالك تلك الدماء الجافة المتناثرة على الأرض وكأن الشيطان نفسه كان يقيم جلسة استحضارٍ هنا.

(بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من شر ما خلق) رددت ذلك وهي تتأمل تلك الخربشات.. المكان مهيب جدًا، ومازال إحساسها بأنها مراقبة من أحدهم يثير الرهبة في نفسها، تلفتت حولها بحذرٍ وبتلقائية وبفضولها الصحفي رفعت آلة التصوير خاصتها و"كلييك"

لم ترى ضيراً من تصوير مخلفات السحر و لربما تقوم كذلك بأخذ صورةٍ لسيدة الدار، ولكن عليها الآن أن تنعم ببعض الدفء فالبرد كان عظيماً، أخرجت من الصندوق أسفل الدرج بضع حطبات وأشعلت المدفئة التي بدأت تصدر دخاناً كثيفاً قبل أن تتأجج وتشتعل النار فيها.. خلعت معطفها وجلست أمام النار ترتجف بردًا لتلتمس بعض الدفء حتى تجف

ملابسها.

الريح تعوي خارجاً وتضرب النوافذ بقوةٍ وكأنها تود الدخول لمشاركتها النار في الداخل. أشعلت سيجارها ونفثت الدخان والآن.. الآن فقط لأدركت أن المصباح الوحيد في هذه الغرفة مكسور!

نترك فداء ونعود بالزمان إلى الوراء، في هذا المكان تحديداً... نصعد السلالم الخشبية بخطى سريعة لنرى ما يجري بداخل هذه الغرفة

السوداء المظلمة ذات الستائر التي تتطاير بفعل الريح التي تعوي خارج النافذة المفتوحة، طفلة تجلس بإحدى زوايا الغرفة بجانب سريرها وتحتضن دميتها الصغيرة، ترتجف هلعا وهي تسمع عراك والدها مع زوجته كما هي عادة كل يوم، لكنها هذه المرة سمعته يصرخ عاليا:

-اتركيها يا مجنونة! لا.. لا ابتعدي"

ثم خمد الصوت فجأة بشكل مريب وحل سكون مرعب للحظات اختلطت فيها أصوات رياح الليل مع رفرفة الستائر وأصوات خطوات تقترب من الغرفة ببطئ .... فتح الباب فجأة وأصدر صريرا مهيبا ليكتسح ضوء أصفر ظلام المكان ويسقط مباشرة على تلك الصغيرة المذعورة التي التصقت بالحائط أكثر وكأنها تحتمي فيه، ودخلت المرأة عيناها تقدحان شررا قائلة بصوت كفحيح الأفاعي:

-الآن بعد موت والدك اللعين لن يبقى لك مكان هنا أيتها الحشرة!"

انفرجت عينا الطفلة بخوف وحاولت التملص لكن المرأة قبضت على الجسد الصغير وهبطت بها إلى الصالة، نظرات هلع سيطرت على الطفلة ما إن رأت والدها، دوت صرخات

متلاحقة تمزق نياط القلوب لما كان ينتظرها ، بجانب جسد والدها الراقد شاخص البصر، مقطع الأطراف، وقعت تلك الصغيرة بإنهاك بعد أن استنفذت مخزونها من الصراخ، استلت زوجة أبيها السكين مجددا وبدأت بطعن تلك الفتاة التي سمعت صوت تمزق جلدها وتنافرت الدماء وسط ضحكات ماجنة دوت من العدم وكلمات تصرخ بتعويذة سحرية

سكون تام داخل المنزل إلا من صوت أنفاس المرأة المتثاقلة بعد أن شربت من دمائهما وخطت فيه عدة أحرف على الأرض، الرعد يجلجل خارجا و الذئاب تعوي من بعيد وكأنها ترى مئات الشياطين، أخرجت المرأة كيسا من الخيش وحشرت فيه جسد الفتاة واتجهت إلى حديقة المنزل بجانب الحفرة الترابية التي جهزتها سابقا.

-انتظري لم انته منك بعد

قالتها وشف ثغرها عن ابتسامة شيطانية

****

وقفت فداء بتأهب تحدق بالمصباح، الضوء لا ينبثق منه، بل لا ينبثق من أرجاء الصالة كلها، دارت ببصرها بالأرجاء لتتأكد ، قررت التوجه إلى الطابق العلوي لربما كان مصدره، صعدت درجات السلم بحذر شديد حتى وصلت لرواق عريض على جانبيه بابين خشبيين متآكلين تقريبا وفي واجهة الرواق نافذة عريضة متكسر زجاجها و مفتوحة والستائر السوداء التي أصبحت بيوتا للعناكب تتطاير في الهواء كشبح غبار غبي و الضوء الأصفر الشحيح ما زال ينير المكان كما الأسفل تماما وبدون مصابيح!

تحركت يدها بتلقائية وخوف و التقطت صورا للمكان رغم ارتعاد أوصالها ولما لم تهرب إلى الآن! سؤال جيد لكن كما تعلمون فضولها دائما يتغلب على العقل والمنطق، التفتت إلى يمينها

دفعت الباب وخطت داخل الغرفة فكانت مجرد غرفة نوم تسبح بطبقات الغبار الناعم الخانق بسرير واسع ومنضدة صغيرة تتموضع عليها صورة مشوهة معالمها لأبوين بينهما طفلة صغيرة تبتسم ببراءة... فتحت الدرج تعبث فيه ولكن لم يكن هنالك سوى كراكيب متآكلة.

اتجهت إلى الخزانة التي بجانب السرير وأمسكت المقبض لتفتحها لكن فجأة وقع الباب المتآكل عليها فزعت وصرخت وهي تنهض نافضة الغبار عن لباسها...

أنهت التقاط الصور وتوجهت ناحية الباب الآخر

دخلت لتلك الغرفة وكانت فارغة إلا من صندوق خشبي بمنتصفها خطت داخل الغرفة العابقة برائحة الموت دون أدنى شك، لكنها توقفت فجأة لتتوسع حدقتا عينيها بفزع ، كانت بقع الدماء الداكنة تتناثر على الأرضية وعلى الحائط عبارات وأحرف وأرقام وموز شيطانية مرسومة بكل ركن وكل زاوية وكل مساحة صغيرة وكبيرة، حروف ورسومات خطت على الحائط بالدم...

الدم هو كل ما يملأ هذا المكان الشيطاني..

لربما كل شيء مر إلى الآن ليس غريبا على الإطلاق.

لكن الغريب حقا وجود أربع شمعات مضاءة على الأرض تقابل كل شمعة زاوية من زوايا الصندوق تتراقص نيرانها البلهاء بكل وداعة في المكان وهي سبب النور الذي يعبق بأرجاء المنزل!

توقفت الكاميرا تماما عند صدرها... لا تستطيع رفعها لتصوير المشهد ولا تستطيع خفضها، رعشة اجتاحت عمودها الفقري وبرودة تملكت أطرافها... بل صقيع جمد أصابعها عن

تصوير ما تراه ، قدميها الآن تزن أطنانا لا تستطيع دفعهما للتحرك والهرب.

اهتز الصندوق فجأة وما زالت تحدق، زاد اهتزازه وزاد ارتعاد جسدها لكنها تقدمت منه على كل حال ،سواء بإرادتها أم بإرادة قوة سفلية شيطانية اقتربت منه وفتحته.

لربما فتحت أبواب الجحيم!

لربما هو صندوق بندورا الذي يحوي كوارث العالم.

فتحته وتفاجأت بلعبة صغيرة جميلة بأسفله!

ضحكت فداء بغير وعي، ضحكت لدرجة أنها وقعت أرضا وصارت تبكي وتنشج كالأطفال وهي تحدق بداخل الصندوق.

ضحكت فداء لكن هذه اللعبة الجميلة البريئة

فتحت عيناها... وابتسمت!

*****

ونعود مرة أخرى بالزمن إلى الوراء، إلى الحديقة حيث تركنا الساحرة وجسد الطفلة وعواء الذئاب، أخرجت المرأة من جانب الباب فأسا كبيرة متجهة إلى جثة الصغيرة وفصلت رأسها بحركة واحدة ليتدحرج على الأرض، ازداد نباح الكلاب، ازدادت الريح قسوة، أخذت الرأس معها بعد أن ألقت الجسد الصغير فوق جثة والدها وردمت القبر بالتراب ودخلت إلى المنزل ،تناولت كتابا من المكتبة الكبيرة وصعدت إلى الطابق العلوي ووضعته على الأرض بجانب الرأس الذي يقطر دما وبدأت تقرأ فيه، صوتها يعلو تارة وينخفض تارة أخرى ليصبح أشبه بالهمس والكلاب تنبح! لا لم تعد كذلك صدقوني.. بل التجأت لأوكارها تتخفى من غضب الشيطان لهذه الليلة!

وضعت صندوقا خشبيا أشعلت أربع شمعات ووضعت كل واحدة أمام رأس من رؤوس الصندوق...

أمسكت كتاب السحر الأسود وقرأت تعويذة من صفحاته فهبت ريح شديدة القسوة وتطايرت الستائر بعنف، أظلمت الغرفة وعبقت بسكون مخيف لا يكتسحه سوى صوت لهاث تلك المرأة مع عقارب الساعة التي لم تتوانى عن عد الثواني لتضيف جوا من التوتر والخوف... دقائق مرت والمرأة راكعة على الأرض لا تتحرك قيد أنملة وأمامها جسد أسود غريب الهيئة، حتى تحركت تلك الدمية الصغيرة أخيرا من داخل الصندوق، حركت رأسها وفتحت عيناها تنظر حولها بصدمة.... ثم بهلع وصارت تبكي خائفة مذعورة مع تعالي صوت ضحكات تلك المرأة الشيطانة التي باتت تصرخ (نجحت.. تحررت... أنا حرة أخيراً)

****

فتحت عيناي بتثاقل ونظرت من حولي... دقائق قليلة حتى استوعبت ما الذي جرى لي، .كنت مستلقية على سرير بداخل غرفة عتيقة قديمة الطراز نهضت فإذا بي أرتدي ثوب منامةٍ أبيض اللون لابد وأنه من القرن الماضي، انتعلت خفاً كان تحت السرير وجلت ببصري بهذه الغرفة ، كانت ضيقةً نسبياً، مبنية من الطوب تتسع لخزانة وسريرٍ ومنضدة محشورة بين السرير والحائط ونافذة ذات ستارةٍ بيضاء هفهافة.

خرجت من الغرفة فوجدت رواقاً قصيراً بنهايته سلمٌ على يميني نزلت درجاته القليلة حتى صرت بصالةٍ واسعة وأثاثها الخشبي أنيق رغم بساطته.

ولكن أين أنا؟ وبأي عام؟!

كنت اتسائل وأنا أتجول بهذا المنزل لاستكشافه ولم أفقه سبباً لتواجدي به حتى الآن!

طرق باب المنزل بقوة فانتفض جسدي وترددت في أن أفتحه حتى جاءني صوت امرأة من خلفه ينادي

-ميري...ميري أنتِ هنا!

تشجعت ولبيت ندائها فلربما استطعت أن أفهم من الذي يجري؟ فتحت ورأيتها... وقفت أمامي بثوبها الأزرق الذي يضيق جداً عند خصرها وقبعة كبيرة مزركشة تتموضع فوق رأسها لتغطي معظمه!

- هاى "ميري جلبت بعض الشطائر هيا لنأكل قبل أن نخرج إلى العمل"

قالتها تلك الفتاة ودخلت بسرعة حتى قبل أن أأذن لها بذلك ووضعت الطعام وصحيفة كانت قد جلبتها معها على الطاولة ولكن من هذه المرأة! ومن هي ميري التي أخذت شكلها على ما يبدو! لا زلت لا أفقه شيئاً البتة !صارت تقول لي بلهفة وتمد بالصحيفة أمام وجهي:

-لن تصدقي ماذا جرى لقد انتهت الحرب أخيرا اقرئي الخبر هيا

حرب! هل هم الآن بحالة حرب!

تناولت الجريدة وقرأت عنواناً مكتوباً بالخط العريض صعقني!

أخيرًا حطت الحرب أوزارها بخسارة دول المركز

ونظرت إلى تاريخ إصدار العدد (١٩١٨)

****

حسناً تتسائلون الآن كيف وصلت فداء إلى هنا أليس كذلك، إذن لنرجع قليلاً إلى الوراء حينما كانت جاثية بجانب الصندوق

ابتسمت تلك اللعبة ببراءة فصرخت فداء بهلع! توسعت حدقتاها برعب وركلت

الصندوق

حتى تدحرجت اللعبة منه وارتطمت بالحائط المقابل.

-أوتش"

.صرخت الدمية بقوة ثم هتفت بها وهي تعتدل

-ما بكِ وكأنكِ رأيتِ شبحاً؟

تلعثمت فداء بكلماتها واضطربت بتفكيرها وركضت تريد الهرب فوراً كردة فعل تلقائية لكن الباب صفق بقوة! نظرت الدمية لفداء بعينين استحالتا حمراوين وكأنهما الجحيم ذاته، الصوت يصدع من كل الاتجاهات واللعبة تتقدم.

-إلى أين ؟

تقدمت اللعبة منها ببطئ تتابع:

-ساعديني.

تلمست فداء رأسها بصدمة كبيرة وصرخت بها.

-أنا أهذي بالتأكيد

-أنا أهذي ...بسم الله الرحمن الرحيم... أعوذ بالله من غضبه!

انطفأت الشمعات الأربع فجأةً و وحل السكون المكان إلا من صوت طفلةٍ صغيرة تبكي بإحدى زوايا الغرفة التي احتوت فجأة على سريرٍ ومنضدة وخزانة ...تلفتت حولها بذعر لكن صراخ رجلٍ صدع فجأة من الطابق السفلي استدارت فداء لمعرفة صاحب الصوت الذي يصرخ بهستيريا واضحة:

-لا.... لا اتركيها يا مجنونة! قالها الرجل لزوجته وبعدها همد الصوت فجأةً إلا من صوت

خطواتٍ تقترب ببطءٍ وإصرار

اقتحمت المرأة الغرفة وحملت الصغيرة بعنفٍ بعدما قالت بكل حقد:

والآن بعد موت والدكِ اللعين، لم يبقى لكِ مكانٌ هنا أيتها الحشرة! والدمية بذات الوقت تهمس بصوتٍ جامدٍ رتيب وهي تتمايل من الزاوية المقابلة....

ساعديني..

.ساعديني..

.ساعديني

بطريقةٍ تثير الأعصاب فعلاً.

وكانت فداء حينها تعيد ما حصل بالتفصيل في تلك الليلة المشؤومة... تعالت خبطاتٌ عنيفةٌ في كل مكانٍ من حولها تزامناً مع تلك الأحداث التي شهدتها وسكن كل شيء فجأةً بعد هذه الرحلة الغريبة إلى الماضي..

توقفت اللعبة الصغيرة على مقربةٍ من فداء التي تساقطت دموعها برعبٍ مما يجري وبصدمةٍ من قسوة المشهد..

ساعديني.. نطقتها اللعبة مجدداً لتسألها فداء بخنوع: كيف أساعدك؟! لتجيب اللعبة بألم...

كتاب السحر الأسود المدبوغ.... تناثرت وريقاته عبر فجوةٍ فتحتها تلك الساحرة عبر الزمن ... فتخلصت هي من لعنتها وكنت أنا كبش الفداء.. لأظل حبيسة هذا الصندوق حتى أخرجتني أنت.... لكنني أحتاج لتلك الوريقات كي أعيد ترتيبها ضمن الكتاب.. كي ترقد روحي بسلام.

حدقت بها فداء غير قادرةٍ على الاستيعاب لتسأل بتلعثم : ك... كيف أساعدك..

تبسمت الدمية قائلةً وهي تضع كفها الصغير على كف فداء: ستعرفين كل شيء حينما تبدأ مهمتك فلا وقت للشرح!

وتمتمت تلك الدمية بكلمات غريبةٍ فانبثقت فجوةٌ سوداء مهولة الحجم لتبتلع فداء وكأنها مكنسةٌ ضخمةٌ تقوم بسحبها بقوة

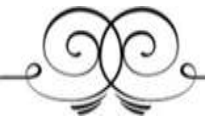

الفصل الثاني

(نساء ناجيريف)

وضعتُ الجريدة بعد أن تصفحت عناوينها فعلمت أني في العام ١٩١٨ وهي فترة انتهاء الحرب العالمية الأولى، وبأي مدينة بالتحديد، كنت في المجر.

استأذنت من تلك السيدة صارت تنظر ولي وكأني لست على طبيعتي معها فحتى إجاباتي كانت مقتضبةً جداً.. لأنني بساطة لم أفهم حتى الآن كيف انتقلت إلى هذا المكان والحقبة الزمنية! كل ما أذكره أن تلك الفجوة العجائبية التي ظهرت بعدما تمتمت تلك اللعبة بكلماتٍ غريبة، ومن ثم شعرت بنفسي أطوف هائمةً وكأنني بين المجرات.... حلقت وحلقت وكلمات اللعبة تتردد من كل مكانٍ من حولي... اعثري على الأوراق.

الأوراق هي سبيلي للخلاص وبعدها همد كل شيء لأكتشف أنني استيقظت بإحدى المنازل المجرية إبان الحرب العالمية الأولى لا بل واسمي ميري!

- ميري! أأنت معي؟

تساءلت تلك السيدة لأتنبه لها قائلةٍ بلعثمة:

- نعم، آسفة شردت قليلاً

تعللت بأن رأسي يؤلمني كيلا أرافقها إلى العمل والذي أصلاً لم أعرف ما هو! فانصرفت وحدها إلى العمل.

صعدتُ إلى الغرفة التي استيقظت فيها وانتقيت من الخزانة ثوباً مناسباً، اعتمرت قبعةً كبيرة وخرجت بعدها أتجول في الأنحاء، كنت على ما يبدو في قرية بسيطةٍ جداً ذات أكواخٍ بسيطةٍ حقيرةٍ تمتد على المرج الأخضر محاذيةً لنهرٍ كبير.

كانت النساء تعملن في كل المجالات من حولي، فرأيت النسوة تبيع وتتاجر وتحرث الأرض وترعى الماشية ولكن أين الرجال! أيعقل ان كل شباب القرية قد اقتيدوا الى الحرب حينذاك؟! كان وضع المرأة في بعض الدول الأوروبية في مطلع القرن العشرين سيئاً للغاية فكانت سلطة الرجل هي الحاكم المطلق لكل شيء وكان يجري الاتفاق على تزويج الفتيات حتى دون موافقتهن على ذلك مما أدى لوجود زيجات فاشلةٍ كثيرة وزاد الأمر سوءاً أن الطلاق كان ممنوعا في تلك الفترة... فكان على النساء الصبر على بلائهن وخيانة أزواجهن ونفسياتهم السيئة، ولكني الآن أرى فارقاً شاسعاً... يبدو أنه بسبب رحيل رجال هذه القرية إلى الحرب اضطرت النساء للعمل ووجدن أنفسهن أمام واقعٍ جديد وأصبحت حواء سيدة نفسها بكل تأكيد..

بقيت أنظر لتلك الفساتين المزركشة والأثواب الريفية البسيطة التي لا تمنع المرأة من القيام بأعمالها.

أدهشتني واجهات المحال التجارية قديمة الطراز حتى استوقفني بناء مكتوب على لافتته (مركز شرطة ناجيريف) حسناً يبدو أن معالم الأمور تضح شيئاً فشيئاً، أنا في قرية ناجيريف، تابعت السير أبحث عن مكتبة ما علي أفهم أكثر أين تقع هذه القرية.. حتى رأيت مكتبةً بسيطةً تجلس فيها فتاةٌ شابة تبادلنا التحية والسلام ويبدو أنها تعرفني كذلك!

انتقلت إلى رف الكتب أبحث عن كتاب له علاقة بالسحر فلربما وجدت ضالتي هنا فأنا إلى الآن لا أعلم ما الذي علي فعله حتى أعثر على الأوراق، وأين؟ فكان خياري الأول هو المكتبة.

تفحصت المكتبة رفاً رفاً حتى عثرت على ضالتي في كتاب الجغرافيا وخرائط العالم ولكن يبدو أنه ليس للسحر مكان في هذه البلدة الصغيرة ! جلست على إحدى المقاعد لأطالع خريطة دولة المجر حتى وجدتها وصرت أبحث عن ناجيريف...

آوه هذه هي

بلدة ناجيريف، قريةٌ صغيرةٌ واقعة على بعد ستون ميلاً الى الجنوب من العاصمة المجرية (بوداسيف "هنغاريا "وتحاذي نهر تيسا) تعالت قهقهاتي المتعجبة وأنا أهتف: انتقلت مسافةً كبيرةً جداً بالزمان والمكان! اللعنة!

أغلقت الكتاب وتشكرت الآنسة وخرجت مكملة طريقي ولكني إلى الآن لم أفهم دوري هنا ازداد تساؤلي وحيرتي حتى رأيتهم من بعيد ،كانوا مجموعة من الشبان والرجال طوال القامة، عيونٌ كأمواج البحر بزرقتها الباهتة وشعرٌ تتفاوت ألوانه ما بين أشقرٍ و كستنائي متماشية مع بشرتهم البيضاء! من هؤلاء؟!

لم أعط بالاً لهم وعدت أدراجي إلى المنزل لأرتاح قليلًا وغدا سأعاود البحث مجدداً لعلي أعرف سرهم.

ليلتي الأولى قضيتها في مطالعة هذه الكتب القليلة التي ترتص في رفوف المكتبة الصغيرة للمنزل ومن ثم النوم باكراً فلا يوجد شيء آخر أفعله.

وفي صباح اليوم التالي خرجت مجدداً لكني هذه المرة دققت بأدق التفاصيل ولم أترك رجلًا أشقر إلا تابعته ببصري لأفهم ما الذي يفعله بقرية كهذه وما زاد تعجبي أنهم يساعدون النسوة ويخالطونهم بطريقة مريبةٍ إلى حد ما!

من هؤلاء؟! بقيت أستطلع الأمر مدة من الزمن حتى قال أحدهم لصديقه -فلنعد إلى المعسكر" وهنا تذكرت بعضا من قراءاتي عن الحرب العالمية الأولى أو لعل أفكاراً ومعلومات انبثقت لذاكرتي فجأة عن تلك الحقبة من الزمن! خلال الحرب شيدت الحكومة معسكراً لإيواء الأسرى بالقرب من البلدة ومعظم الأسرى كانوا من الجنود الروس ،والمجر آنذاك كانت تمر بأزمةٍ مالية فاضطرت إلى سوق الأسرى للعمل كسخرة في القرى القريبة من المعسكر مقابل إعطائهم بعض الطعام..

ولكن وما ترائى لي أن هؤلاء الرجال البيض أصبحوا وسيلة تسلية السيدات والنساء فى تلك القرية ووجدن فيهم ضالتهن المفقودة عندما اقتيد رجالهن إلى الحرب.

يا لسخرية القدر!! قلت لنفسي وأنا أرى النسوة يتمايلن ويتسكعن دون حياءٍ مع أولئك الجنود بكل حرية دون الشعور بالخزي أو العار، عدت إلى منزلي بعد هذه الجولة المطولة واستلقيت على السرير وأنا إلى الآن لم أرى امرأة من بين تلك النسوة تشكل خطراً أو ساحرة على العكس كل شيء طبيعي هنا طبعا إذا استثنينا موضوع أولئك النسوة الخائنات ...وأنا سارحةٌ في أفكاري طرق الباب بخفة نهضت وفتحت لأرى شاباً وسيماً جداً يتكئ على حافته ويهمس

-هالو" ميري يا قمري المنير ونجمتي اللامعة

-من أنت؟

قلتها بارتباك وخوف عندما حاول التقدم مني أبعدته قبل أن يدخل إلى المنزل وهو متفاجئ من تصرفي الذي على ما يبدو أنه غريب جدا بالنسبة إليه!

فقال بلهجة حزينة:

-ما بك اليوم يا حلوتي... هاهو موعدنا ككل ليلة أم أنك عشقتِ أحداً غيري!

-آوه لا ...لا أبداً اسمع..

أمسكت صدغي أفركه بتوتر فما عشته بهذين اليومين كبيرٌ عليّ استيعابه.

اسمعني لم أعشق أحدا ولكني اليوم تعبة جداً ولن أستطيع إدخالك إلى المنزل أرجوك ارحل الآن اتفقنا.. وسأكلمك لاحقا.

نظر لي بتشكك ثم زفر قائلاً :

-حسناً يبدو أنك لم تعودي راغبة بي سأذهب إلى الحانة إن عدلت عن رأيك ترينني هناك.

أومأت له ثم صفقت الباب في وجهه وأغلقت القفل جيداً وبقيت أنصت حتى استسلم للأمر ورحل، تنهدت واستلقيت على الأريكة متعجبة من هذه الجرأة لدى النسوة! أنا متزوجة وعلى الرغم من أن علاقتي مع علاء متوترةٌ قليلا ولكني أحبه. لا استطيع أن أفكر مجرد تفكير أن أخونه حتى ومع جندي من الماضي.

قهقهت عالياً من كلماتي

آوه يا إلهي ما هذا التفكير الآن!،نظرت الى ساعتي لأستطلع الوقت.. ولكن مهلاً ما هذا! من البارحة صباحاً حتى الآن لم يتحرك العقرب سوى عشر دقائق.. كيف للزمن أن يسير ببطئ هكذا هنا أم أن ساعتي معطلة

استيقظت صباح اليوم الثالث مع إشراقه الشمس على وقع أقدام ثقيلة وكأن مئات الرجال تخطو أقدامهم الأرض وتزلزلها داخل هذا الشارع.. أبدلت لباسي على عجل وخرجت وكما توقعت.. كان عدد كبير من الجنود يبدو أنهم رجال القرية عائدون من الحرب بعد أن انتصروا على جيش العدو ولكن أي انتصار بعد هذا الذل والغدر الذي رأوه هنا؟!

عاد الرجال يتملكهم الشوق لحياتهم وعائلاتهم ولكن أين تلك الحياة الآن! تبخرت وتلاشت ولم يعد لها وجود.... عاد الرجال ورأوا نسائهم بذاك الشكل المخزي وهذا الضلال الشديد، وكانت صدمة النساء اللاتي عاد أزواجهن ليست بأقل صدمة من رجالهم!

عادوا بعد انتصارهم ليفاجئوا بأن زوجاتهم كن مع رجال العدو وبين أحضانه في الوقت الذي كانوا فيه على جبهات القتال يحمون الأرض والعرض!

****

وعادت كلمات اللعبة التي قالتها بصوتٍ كالهسيس تدق نواقيس ذاكرتي: مزقت زوجة أبي الوريقات فتبعثرت عبر التاريخ إثر تعويذةٍ لعينةٍ رددتها شفاهها بشكلٍ خاطئ... كانت ساحرة، عشنا مع ساحرةٍ لسنواتٍ دون أن ندري!!

ابحثي عنها كذلك... ستكون متواجدة في كل حقبةٍ تزورينها... لعلها تسترجع ما فقدته بغبائها....

****

توالت أيامي هنا وتوالت المشاكل والأحداث من حولي بسرعة كبيرة جدا وكأنني جزء من فيلم تعرض أحداثه بطريقة متسارعة،

النسوة رفضن العودة إلى الأيام الخوالي مع أزواجهن اللذين تجرعوا المر بقلبٍ كسير...
ومنهن من رفض التخلي عن العشيق الأشقر الذي خطف قلبها ولبها وبالمقابل أصبح الرجال أكثر عدائية وقسوة ووحشية... صاروا كالوحوش الثائرة الجريحة يشربون الخمر ليلاً نهارًا عسى أن ينسوا هذا الواقع المرير الذي تلطخوا فيه...
وبالمقابل تمنت النساء لو لم تنته الحرب وبدأن يفكرن بطريقة ما للتخلص من أزواجهن فقد أصبح العيش معهم مستحيلاً جداً وخاصة بعد انفتاحهن واستقلاليتهن بهذا الشكل الفج...

****

كانت تتوالى أيامي بسرعةٍ كالبرق .لكن ساعتي لأمرها عجيب فهي لم تكمل حتى الأن بضع ساعاتٍ منذ وصولي وكأن الزمان هنا له توقيتٌ خاص! وأنا شاردة بهذا التفكير أتطلع بساعتي وأقطع الخضار لتجهيز العشاء جرحت يدي في سكين المطبخ فأخذت تنزف بغزارة وكانت بجانبي لأجل الصدفة السيدة التي رأيتها في منزلي أول مرة وكان اسمها (سوزي آولاه)...أو الخالة سوزي كما يسميها الجميع هنا، وكانت على ما يبدوا الصديقة المقربة مني! أو من تلك الشخصية التي انتقلت إلى هذه الحقبة لأمثلها!

-آوه عزيزتي إن حالتك خطرة انتظري قليلاً سأستدعي السيدة جوليا "...وغابت لمدةٍ من الزمن حتى رجعت برفقة امرأة ما علمت أن اسمها (جوليا فازيكاس) ...و هي قابلة وخبيرة بأمور النساء على حد قولها والأهم من هذا أنها كانت الصديقة المقربة للخالة سوزي، كانت فازيكاس أرملةً في منتصف العمر تقريباً، متشحة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها تشعرك بالرعب للوهلة الأولى! كان وجهها جامدٌ ذات تقاسيم غليظة لا تنم نظراتها عن أي عاطفة أو روح فنظراتها حادة ثابتة تعطي شعورًا بالقوة والشجاعة، عملها كقابلةٍ لم

يقتصر على التوليد فقط بل كانت أشبه بطبيبةٍ نسائية في هذه القرية الصغيرة وتضمنت خدماتها إجهاض النساء وهو عمل ازدهر في الحرب لكثرة النسوة الراغبات في التخلص من الأجنة الناتجة عن علاقتهن الغرامية خارج إطار الزواج في تلك الفترة...

يبدو أني عرفت هدفي ....قلت لنفسي وأنا أتفحص تفاصيل هذه السيدة المهيبة السوداوية وعادت كلمات اللعبة تدق ناقوس ذاكرتي((ابحثي عن كل ما له علاقةٌ بالسحر والشعوذة، ستعرفين الساحرة من لباسها، نظراتها ولربما لهن كاريزما خاصة تبث الرهبة في النفوس((

تفرست في هذه المعالم المهيبة وهي تقوم بتضميد جراحي بمهارةٍ فائقة فتطلعت بي نظراتٍ مبهمةً قبل أن تنتهي وتستأذن للرحيل

****

وفي الصباح كنت قد قررت زيارتها لألقي نظرة على منزلها وأحاول إيجاد تلك الصفحات فالوقت قد طال و أنا حتى الآن لم أمسك بطرف الخيط ..طرقت بابها أحمل سلة من الحلويات كنت قد خبزتها في المنزل قبل أن أخرج، فاستقبلتني بترحاب و تصنعت ابتسامة وأنا أقول:

-مرحبا سيدة جوليا أنا ميري ..كنت أود أن أتشكرك لمساعدتي البارحة.

-أهلا ميري تفضلي بالدخول.

أفسحت لي المجال وأشارت بيدها كامرأةٍ أرستقراطية تدعوني للدخول ثم مشت بخيلاءٍ أمامي وتبعتها حتى جلسنا على الأريكة وما تزال تلك السيدة تتسربل بالسواد حتى في منزلها ! كان منزلها بسيطاً كباقي منازل أهل هذه القرية الفقيرة لكنه يحوي مكتبة جميلة.

-تحبين قراءة الكتب سيدة جوليا!

قلتها وأنا أتجه إلى المكتبة مبتسمة وبطأت بإلقاء نظرةٍ على محتواها والتي كانت تحوي مواضيع عن الطب والإسعافات والجراحة وبضع كتب متنوعةٍ عن الأعشاب والعقاقير ونحو ذلك

-نعم عزيزتي ...إني أطور مهاراتي الطبية كما تعلمين أنا شبه طبيبةٍ في هذه القرية الصغيرة وعلي أن اقرأ وأتعلم لأستطيع معالجة النسوة في هذه البلدة.

أومأت لها بتفهمٍ لتزكي أنفي رائحة البخور الغريبة التي تتصاعد في منزلها ! حسناً بخور في منزلٍ مجري! لا شيء عقلانيٌ البتة يجري معي حتى اللحظة لأقف عند هذه النقطة بالتحديد ولو خرج لي الآن من غرفتها عرافٌ يضرب رجلاً على مؤخرته لإخراج الجن منه فلن أستغرب الأمر أبداً!

وبدأت الأحاديث بيننا تنمو وتكبر وعملي في مجال الصحافة جعلني أستدرجها بالحديث لكن إما أن تكون تلك السيدة ماكرةً جداً أو أنها فعلاً ليست ساحرة! ولكن والحق يقال هي امرأة قوية فعلاً والغريب أنها لا تتصرف وكأنها امرأةٌ ريفيةٌ بسيطة.. توفي زوجها الأول فانتقلت للعيش في بلدة ناجيريف في عام ١٩١١ ولكنها لم تخبرني من أي مدينة هي وما الذي دفعها للعيش بهذه البلدة الصغيرة على الرغم من أني حاولت بشتى الطرق استدراجها لكني لم أفلح بذلك! والحقيقة أن لا أحد يعرف من أين جاءت تلك السيدة فجأةً ، فلم تكن تبوح عن ماضيها لأحد ،فبقي مجهولاً لدى الجميع على الرغم من شهرتها الواسعة ومحبة النسوة لها في هذه القرية المتواضعة

لم يطل الأمر بها حتى تعرفت على رجلٍ من البلدة وتزوجته منتقلةً إلى كوخه... ولكن ولتعاسة حظها أو حظه ! توفي زوجها الآخر في عام ١٩١٣ لتعود أرملةً من جديد ولترث ما

تركه لها من أموال، والغريب أن زوج الخالة سوزي قد توفي بعد ذلك بوقت قصير وبصورةٍ مفاجئة مما أثار ريبة البعض لكنهم سرعان ما تناسوا الموضوع.

ازدادت زياراتي لتلك السيدة يوماً بعد الآخر وعرفت عنها المزيد ...كانت خبيرة سمومٍ على حد قولها تقوم بتجارب متواضعة بسرية بعيداً عن أعين الفضوليين ، لها باع في السحر إذ أني لمحت مرة كتاب كانت قد نسيته على المنضدة يحوي مجموعة خربشات وعندما سألتها والفضول كان يعتصرني ضحكت ملئ حنجرتها وأجابت (ما هي إلا خرافات و استغباء لعقول الجاهلين الذين لا يعرفون السحر

-وهل تستطيعين تمييز الكذب والدجل بمجال السحر؟!

سألتها بلهفة لتجيب ببساطة: نعم

وطبعا قررت أن أدخل هذا المنزل لأفتش فيه وقد أيقنت أنها المقصودة في بحثي ...لكن شيئاً غريباً أثار قلقلي كان كذلك يحدث في هذه البلدة بعد أن عاد رجالها من الحرب !

حتى جاء ذلك اليوم وكنت أحادثها في صالة الاستقبال جعلني أفهم ما يحدث !، طرق بابها و دخلت امرأة ما لمكتبها واستطال الحديث بينهما ....مشيت على أطراف أصابعي ووقفت خلف الباب المواري أسترق السمع ويا ليتني ما فعلت!!!

-تفضلي أمسكي بهذا الدواء "قالت السيدة فازيكاس لضيفتها الصغيرة الباكية التي تشتكي لها أفعال زوجها فتساءلت الشابة وهي تتأمل هذه القارورة البنية الصغيرة وتقلبها بين أصابعها فاقتربت منها فازيكاس وتطلعت فيها بجديةٍ قائلةً بهسيسٍ مخيف :

-ضعي بضعة قطرات منها في طعام زوجك وسينتهي أمره"

شهقت الشابة بعيونٍ متورمةٍ من البكاء وهزت رأسها نفياً وقالت بصوتٍ يرتجف :

-هذا سم؟؟ هل تقصدين أن أقتله أنت تمزحين !! لا أستطيع ..لا أظنك تقصدين ذلك حقاً يا سيدة جوليا، لم تصل الأمور للقتل لن أستطيع"

رفعت جوليا إحدى حاجبيها ونهضت بشموخٍ قائلةً ببرود : ولم لا؟؟ رجلٌ سكيرٌ وقح، يضربك، ألم تخبريني أنه يفعل هذا كل يوم، أنت أخبرتني لي أن الحياة استحالت جحيماً معه وأنك موقنة أنه سينتهي بك الأمر جثة هامدة على يديه فماذا تنتظرين ؟؟؟ حتى يرسلك هو الى القبر!!

وأردفت بصوت كالفحيح ...بادري أنت وأرسليه إلى حتفه... الرجالُ لا يستحقون الحياة يا صغيرة..

كتمت شهقتي وأنا أستمع لحوارهم ...كانت فازيكاس تتعاطف مع مشاكل النسوة لحد كبير و تكره الرجال بطريقةٍ لم أفهمها ، لكن أيصل كرهها للقتل !!! لإزهاق روح !؟ تراجعت إلى الوراء أجلس على المقعد وقد اعتراني خوفٌ دفينٌ منها

وبالفعل لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى كان المسكين يرقد في التابوت في طريقه إلى مثواه الأخير !!!وخلفه مباشرة تمشي زوجته تترنح حزناً وألما على رحيل زوجها العزيز، ومن ورائها كنت أمشي لتشييع جثمانه مع السيدة فازيكاس والخالة سوزي والكثير من النساء المتشحات بالسواد ...كان موكباً غريبا بحق ! وأنا على الرغم من حزني و معرفتي بذلك الأمر حتى قبل حدوثه ولكن ما باليد حيلة فأنت لن تستطيع تغيير التاريخ مهما حاولت فالوقائع لا تتغير مع الأسف.

ومع هذا الأمر فقد عرفت ضالتي وعلمت أن صفحات كتابي بيد تلك المرأة المسماة فازيكاس لا محالة.

الفصل الثالث

(صُناع الملائكة)

قوارير فازيكاس السحرية سرعان ما وجدت طريقها لمنازل أخرى في البلدة وبالتدريج أصبح موكب التوابيت منظرا مألوفا لدى سكان مدينة ناجيريف.. وأمام الرأي العام...

سبحان الله الرجال المساكين تأثرت نفسيتهم في الحرب !

عدد النساء اللاتي استعملن هذه القوارير من المؤكد أنهن أكثر من المائة بكثير وقد شكلن ما يشبه النقابة أو الجمعية وطبعًا كنت أنا من عضواتها فقد جاريت فازيكاس بأعمالها حتى أكسب ودها ولم يكن بالأمر الهين أبداً أن تشهد على وقائع قتلٍ منظمة!

بعد تأسيسها الجمعية أطلقت عليها اسم (صناع الملائكة)

-سيدة فازيكاس وما معنى هذا الاسم الغريب ؟!"

سألتها ونحن نحتسي الشاي الساخن في دارها فأجابتني بخبث :

-أحقاً لا تعلمين..

-لا لم أسمع به من قبل

-إذاً اسمعي... لذلك الاسم قصة غريبة ومخيفة و أخذت تروي لي القصة العجيبة:

هذا الاسم يطلق في أوروبا على الحاضنات اللاتي يهتممن بالأطفال مقابل أجرةٍ ماليةٍ في مكان اسمه (مزارع الملائكة) وغالباً ما تتم معاملتهم بقسوة من قبل أولئك النسوة ويتعرضن للإهمال الشديد وأحياناً الضرب مما يؤدي إلى مقتلهم وأحيانا كانت مسئولة الدار تختصر عذاب أولئك الأطفال فتقتلهم بنفسها خنقاً أو تمزقهم في حوض الاستحمام وبعضهم

يقومون بوأده حياً "ومن هنا يا عزيزتي ميري جاءت تسمية صانعة الملائكة...كنوعٍ من التهكم فلا مجال للمقارنة بين الملائكة وهؤلاء الشياطين"!

وقهقهت بصوت شيطاني رفيع حاد مقزز مرعب لأصرخ بفزع بدوري:

-حقاً ... معك حق الرجال لا يستحقون الحياة!.

اقشعر بدني من كلامها ولكني حاولت السيطرة على أعصابي قدر الإمكان وسألتها بشكلٍ مباشر

-نعم ولكن ... أود ان أسألك سؤالا ؛ زوجاكِ كيف ماتا و آسفة إن كنت أتدخل بشؤونك.

-لا عليكِ عزيزتي كلنا في هذه الجمعية نحتفظ بأسرار بعضنا البعض ..أليس كذلك ميري؟

سألتني بدهاءٍ وابتسمت لي تلك الابتسامة الماكرة لأومئ لها بامتعاض فأجابت ببساطة:

-حسناً.. زوجي الأول قد أصيب بمرضٍ مزمن ومات فلا دخل لي بذلك، وبعد أن تزوجت بالآخر ؛ قلب حياتي جحيماً بصراخه و ثمله وسوء خلقه ودماثة روحه فلم أعد أرغب به، وببساطة تخلصت منه فمنزله يلزمني.

وابتسمت لي تلك الابتسامة الشيطانية..... بادلتها الابتسام بدوري وأنا ألعن بسري هذه الشيطانة الخبيثة وأتمنى أن أرى تلك الصفحات وأرحل عن هذه البلدة الملعونة بما فيها من بلاء.

****

وشارف العام ١٩٢٩ على الانتهاء بشكل عجيب ! تتراكض السنوات بي بشكل عجيب لأشهد أهم الأحداث الحاصلة حينذاك...

أرسلت قوارير جوليا السحرية أكثر من ثلاثمائة شخص إلى مثواهم الأخير وكان أكثرهم من

الرجال. تساءلت كثيرا ما سر تلك القوارير الزجاجية الصغيرة ذات اللون البني الغامق و ما هي نوعية ذلك السم الذي تستخدمه وكيف لم تشك حتى اللحظة الحكومة بسر مقتل كل أولئك الرجال؟! مئات الأسئلة كانت تحوط بي ولا قدرة لي على حل تلك الألغاز..

كانت السيدة فازيكاس تستعمل تلك القوارير كنوع من التجارة بحيث كانت تطالب النسوة بدفع مبلغ عشرون دولارا ثمن كل قارورة وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ولسخرية الموقف كانت بكل مرة تعطي إحداهن قارورة تقول جملتها الشهيرة:

"الزوج الطيب هو الزوج الميت ..لأنه لا يفتح فمه مطلقا"

وكأنها تعويذة انتقاله إلى العالم الآخر!

الأهالي باتوا يشعرون بالقلق من تزايد عدد الأموات بهاتك القرية الصغيرة ورجال الشرطة كثفت دورياتها في المنطقة دون الوصول لهدف يذكر والذي يثير الريبة أكثر ؛ أن أغلب الأموات كانوا من صنوف الرجال ! وبسبب ضيق الإمكانات بتلك الحقبة الزمنية لم يكن باستطاعتهم تشريح الجثث لمعرفة سبب الوفاة.

وتوالت اجتماعاتنا في جمعية صناع الملائكة وكل سيدة كانت تحكي تجربتها المثيرة في استخدام هذه القوارير وكأن الأعداد التي قتلت مجرد حشرات لا قيمة لها بينهن ،بل وتفنن في القتل حتى ابتكرن أساليب شيطانية مريعة.

فمثلا هذه التي على يميني بهذه اللحظة اسمها ماري وهي متزوجة_ أو عفوا كانت كذلك _ ولها ولد في الثالثة والعشرين من عمره وقالت بكل بساطة تصف المشهد :

-أكره الرجال ....غلظتهم ، استعبادهم لنا ، ونفسياتهم الدنيئة وكأننا مجرد عبيد لشهواتهم وما علينا سوى أن نطيعهم ، أردت أن أعيش ...أن أكون حرة استقلالية فلدي عملي الخاص

الذي اعتلت منه أثناء اقتيادهم على الحرب ولم أعد راغبة في مشاركتهم حياتي واقتحامها بهذا الشكل الفج.

تخلصت من زوجي بعد أن طهوت له أكثر شيء يحبه فمات وهو على المائدة ...أما عشيقي فقد طبعت قبلة ناعمة على رأسه قبل أن اجعله يشرب العصير وقلت له وداعا... فببساطة مللت منك.

ابني تمايلت طربا على صوته الحنون وهو يغني لي أغنيتي المفضلة ولكنه ومع الأسف لم يستطع إكمالها فأخذ يتلوى ممسكا بطنه من شدة الألم حتى صعدت روحه البريئة الى السماء"

أنهت جملتها تلك وهي تحتضن كفيها إلى صدرها مغمضة العين وكأنها تسترجع ذكرى جميلة ليس إلا،

نظرت النسوة وهن يستمعن بنشوى غريبة إلى ماري وأنا ذاهلة أسمع وأرى الذي يجري ...وغير مصدقة أن هذا كله حقيقي وجرى منذ مئة عام على الأقل!!.

تنحنحت السيدة(فارجا)ليتنبهوا لصوتها ثم قالت:

- إحزرن كم عدد قتلاي حتى الآن

صمتت جميع النسوة ينظرن إلى بعضهن البعض وقد قلب اجتماع اليوم إلى مزاد حقيقي لعدد الأموات.

- ممم ...أولا والداي العزيزان طبعا ...لشؤون ميراثية بحتة ،زوجي الحبيب واثنان من أشقائي وابنة شقيقتي ....وها أنا ذا ورثت كل شيء من عائلتي الكريمة رحمة الله على أرواحهم، والفضل يعود لك سيدة فازيكاس شكرا لك من كل قلبي"

قاطعتها (ليونا) وهي ذات وجه جامد غريب مخيف وكأنها ألف شيطان بجسد امرأة:

-أما أنا فكنت على موعد مع عشيقي كيم وقد اقترب موعد لقائنا فاضطررتُ آسفة للتخلص من أطفالي الثلاث بعد أن دسست لهم السم بطعامهم فناموا كالملائكة الصغار وارتاحوا من هذه الحياة التي لا تجلبُ سوى المشقة والتعب

'يا لهي يكفي ما سمعته...يكفي":

همست أحدث نفسي بتوتر وأنا اعتصر كفي يدي و استأذنتهم بحجة أني أريد العودة إلى المنزل وقررت أن ادخل ليلا إلى منزل الشيطانة جوليا لأنتهي من أمري هذا فلم أعد أطيق الإنتظار..فاجتماعهم لن ينتهي قبل الرابعة فجرا.

كانت جوليا هي هدفي الأوحد لأنها تمثل الشر الخالص ...فلا غيرها يستحق لقب ساحرة ولا غريب من أن كتاب السحر ضمن مكتبتها لذلك حسمت أمري حين انتصف الليل ....وها أنا أسير بخطى ثابتة نحو ذلك المنزل المتموضع بمنتصف البلدة ، خطوت داخل المدخل وتسارعت دقات قلبي كعقارب ساعة بلهاء لا تكف عن احتساب الثواني، وأنا أعالج قفل الباب حتى انفرج ؛ دخلت ذلك المنزل اللعين الذي يعبق برائحة الموت الأحمر أبحث عن الكتاب كالمجانين ولكن دون جدوى، بحثت في أرجاء المنزل ولم اترك ركنا إلا فتشت فيه، حتى رأيت القبو..

نزلت درجاته حتى أصبحت بمنتصفه تماما كان معتما كئيبا ولكنه أشبه بمختبر ما ..

كانت على الحائط رفوف ترتص عليها أعداد كبيرة من تلك القوارير السحرية على حد قولها. تأملتهم وأخذت واحدة وسستها في جيبي..

كانت هنالك طاولة ومقعد خشبي يتموضع بجانبها صندوق كبير اتجهت ناحيته تلقائيا وفتحته

فصفق باب القبو بقوة، وكانت فازيكاس تهبط الدرجات ببرودها المعتاد والمخيف وهي تحدجني بنظرات قاتلة ،تسمرت بمكاني بعد أن صارت قبالتي وهمست بصوت كفحيح الأفاعي :

-كنت أعلم أنك تنوين على شيء ما يا ميري ..هذا إن كنت ميري حقا"

تراجعت خطوتين إلى الوراء من أثر الصدمة ثم رفعت رأس وقلت بتحد:

-اذا كشفتني ...أيتها الشيطانة ، ولكن اسمعيني جيدا

أنا لا اهتم بك ولا بتلك النسوة أجمعين ...أريد شيئا واحدا فقط ولتذهبي بعدها إلى الجحيم لا يهمني.

-ما هو طلبك؟ قارورة

قالتها ببرودها المعتاد لأجيبها بحدة :

-لا حاجة لي بها ...أريد الكتاب.

ضيقت عيناها ثم وضعت الشمعة التي تحملها بيدها على الطاولة وعادت تقول :

-أي كتاب تقصدين لم أفهم ؟

عقدت ذراعي أمام صدري وما زالت نظراتي تحمل الكثير من المعاني لهذه الشيطانة التي أمامي،

-سيدة جوليا فازيكاس ...أربد كتاب السحر الذي تعلمتي منه صنع هذه المادة العجيبة المتوضعة في القوارير الصغيرة القاتلة تلك"

ضحكت جوليا....ضحكت وتعالت ضحكاتها وقهقهتها ثم أردفت:

-إذا تريدين كتاب السحر!!

واتجهت إلى الصندوق وفتحته ؛ فتراجعت مجددا خشية أن تخرج شيئا ما تلحق بي من خلاله الأذى لكنها خيبت توقعاتي و أخرجت علبة ما ورمتها باتجاهي ..التقطها وقرأت ما عليها (شرائط قتل ذباب)

-ماذا..... أتستهزئين بي!!

ألقيت العلبة ناحيتها وصرخت بعدما تملكني الهلع:

سلميني الكتاب وكفي عن اللهو وإضاعة الوقت"

ابتسمت لي ببرود غريب ثم أجابت:

-ميري اسمعي... ليس في الأمر سحر ولا كتاب كما تعتقدين، لست مضطرة لاختراع مركب سحري او ما شابه ! المسألة ببساطة أني آخذ تلك الشرائط وأحلها في الماء حتى يتحلل اللاصق وتتخمر مادة الزرنيخ فيصبح سما زعافا ، وهذا كل ما في الأمر ...لا يوجد سحر في الموضوع ولكن النسوة يعشقن الآكشن لذلك أشعت أنه دواء ذو مركب سحري.

-يا الهي.... زرنيخ؟

-نعم ...واستعماله بسيط جدا يا حلوتي....نستخدم في بادئ الأمر بضع قطرات منه مع طعام الضحية لكي يكون أثره بطيء ولا يكتشف أمرنا ونستمر في زيادة الجرعة حتى تظهر أعراض التسمم كالصداع و الاقياء والدوخة...والألم في المعدة..

وبعدها تتعمد القاتلة إلى الاهتمام والخوف على مريضها والظهور بمظهر الحريص الخائف على صحته كيلا نثير الشكوك .وتذهب إلى الصيدلية لشراء الدواء ...وهذا الدواء الذي من

المفترض به معالجة المرض يصبح هو أداة القتل الرئيسية ويستمر هذا الحال بضعة أسابيع حتى تلتقط الضحية أنفاسها الأخيرة ويموت بهدوء وسلام...

وضعت يدي على فمي امنع شهقة وتلعثمتُ قائلة بارتباك :

-.كيف لك ان تفعلي هذا بدم بارد ...والشرطة أنا غير فاهمة كيف لها ألا تشك بك أو بهن ..لا أفهم..

-أنا محظوظة لأنه لا يوجد مستشفى في هذه البلدة، فببساطة الجثة لا تتعرض للتشريح... فهتفت بها بحدة:

-وطبعا تعددت الأمراض والموت واحد.! .....ولكن أريد أن أسألك سؤالا واحدًا فقط و أرجو منك ان تساعديني لأن هذا كله لا يهمني"

-ما هو ؟؟

-أين الكتاب .؟

-إذاً مازلت تصرين على أنه يوجد كتاب سحر لدي ؟

-بكل بساطة ....نعم.

تقدمت مني جوليا بثبات وتطلعت بعيني بحدة مجيبة :

-لا اعرف ما سر ذلك الكتاب معك ولما تريدينه لكن يؤسفني أن أقول لك أنه لا علاقة بي بالسحر لقد أخطأتِ العنوان"

جلست أمامها على الكرسي بيأس وكأني استنجد للخروج من هذه الدوامة المخيفة التي تهت فيها:

-ولكنك قلت أنك تعملين بالسحر"

-تلك كانت....لنقل كلام مشعوذين كاذبين ليس إلا لتصدق النسوة قواريري وتشتريها أما الكتب الموجودة بمكتبتي مجرد خربشات لا قيمة لها وكما يقولون حبر على ورق"

وبضياع سألتها ...إذن"

-إذن أرجو أن تغادري منزلي بكل لطف لأني ولسبب غريب لا ارغب بإيذائك آنسة ميري.

ألا تخشين أن أشكوك للسلطات ؟

تساءلت بصدق حقيقي ؛ فتبدل كل شيء فجأة من حولي تراقصت أفاع مجنونة من رأس جوليا التي استحالت لشيطانة جهنمية الهيئة ... وصرنا نقف على فراغ مخيف لا أشعر فيه بثقل جسمي ...وكأنني أطوف في الفضاء..

أجابتني بعد أن اصطبغت عيناها بلون أحمر جهنمي وتبدل صوتها ليدوي مكانه صوت يليق بهذا المسخ الذي باتت عليه و جعلني أجفل مكاني.

-لعبتنا بدأت يا فانية"

اقتربت مني خطوات وكأنها لا تلامس الأرض جعلتني أرتعد خوفا و أتراجع بكل خطوة تخطوها نحوي لكن إلى أين سأهرب بهذا الفضاء الذي تنعدم فيه المسافات !!! ، عادت للكلام من جديد :

-كل سر يباح ، من رحم همجيتكم ، تنسلخ عنه ورقة من وريقات الكتاب...

وفق شروطي يا فانية ...على أرض كوابيسي ستلعبين....

وتندمين...

ستتألمين...

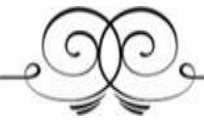

وتصرخين...

ستبكين،

والنهاية ....متصلة بالبداية.

كلماتها تدوي بكل مكان فترتطم ارتطاما ، أشعر بها تخترق أذناي، فأقشعر خوفا ورهبة ...وكأني بعهدة ملك من ملوك الجان ... أو في وكر لمارد شيطان ،

قالت كلماتها و فجأةً عاد كل شيء لما كان"

وقعت جوليا على الأرض بلا حراك ووقفت أمامها كالبلهاء ألهث انفعالا وقد استحلت لورقة خريفية تتراقص قبل السقوط ، تراجعت إلى الوراء شيئا فشيئا صعدت السلم أحدق بها وبالمكان الذي يغلفه السكون وأطلقت ساقي للريح هربا منها ومن كل ما جرى...

****

وصلت المنزل ودلف إلى داخله فقلب الظلام إلى نور في الخارج !، من منتصف الليل إلى ذروة الظهيرة بلمح البصر و سمعت جلبة في الشارع ، خرجت من جديد وقد لمحت مجموعة رجال من الشرطة تداهم أحد البيوت القريبة مني وتلقي القبض على أرملة من أرامل البلدة.

_تساقطت حبة خرز واحدة ....وبعدها تبعثرت الحبات الأخرى _ تحت التعذيب اعترفت الأرملة بما حدث ويحدث لقاطني هذه البلدة الملعونة، أما فازيكاس كانت تقف على شرفتها فإذا بها تلمح رجال الشرطة ...فعلمت أن الأوان قد حان ....وأن العدالة لابد وأن تأخذ مجراها مهما طال الزمان .نزلت عبر درجات القبو واستلت إحدى قواريرها وجعلتها تلامس فمها قبل أن تبتلعها دفعة واحدة ...قضي الأمر وحان وقت الحساب وكانت تعلم أن

مصيرها إما الموت شنقا أو المؤبد وهكذا قررت إنهاء حياتها بيدها....ارتشفت أخيرا من نفس الكأس الذي لطالما سقت غيرها منه .وعانت لحظات العذاب والألم نفسها التي عاناها غيرها أمسكت حنجرتها تصرخ بصوت مختنق و سقطت صريعة قبل أن تداهم الشرطة منزلها بلحظات .... وصارت النسوة تقدن إلى المعتقل، كل واحدة مات زوجها أو ابنها أو قريبها ...كانت تساق لمصيرها الأسود وكانت العقوبات تتراوح بين الشنق والمؤبد .... عرضت كل تلك التفاصيل أمام عيني كفيلم سينمائي متسارع الأحداث..

أما الرجال المساكين فمن حينها أصبحوا يحترمون المرأة بشكل عجيب ويخشون بشدة غضب زوجاتهم فصاروا من ألطف وأنبل ولربما أشرف رجال الأرض.

ومع استمرار رجال الشرطة في الاعتقال كان لابد أن يطالني الأمر فأنا كذلك عضوةً في جمعيتهن، عند مداهمة رجال الشرطة منزلي بغتة لم أرى إلا أن أختبئ في العلية المليئة بالكراكيب ...فصعدت درجات السلم بسرعة، جلت ببصري بالأرجاء لأرى صندوقا كبيرا قديما مهترئا بعض الشيء علي أختبئ بداخله و أنا أسمع أصوات الرجال تبحث في كل أرجاء المنزل....

دققت النظر فإذا بي أرى مجموعة كتب غريبة الشكل وكأنها مدبوغة من جلد حقيقي... أبعدتها وقلبت محتويات الصندوق حتى لاحت لي ثلاث صفحات جميلة مكتوبة بلغة ....أؤكد لكم أنها ليست المجرية.

فتح باب العلية ونظر الشرطي لي ملوحا يديه...

-هي يا امرأة ..أنت رهن الاعتقال"

تذكرت كلام تلك الشيطانة أو الساحرة أو الماردة ..._أيا كان اسمها_

"النهاية متصلة بالبداية"

-فبادلته النظرات وابتسمت.

الفصل الرابع

(كونتيسة الدم)

كان الشرطي يتقدم نحوي بخطوات واثقة وقد دب الرعب بأوصالي، لا علم لي أين أهرب فقد حوصرت حقا في هذه السقيفة الصغيرة ذات الضوء الخافت...احتضنت الورقات جيدا بيدي وكان الكتاب المدبوغ ما يزال معي ووضعتهم بجيب المئزر وأنا أخاطب اللعبة بعقلي بأن تنقذني من هذه الورطة ،

صار قبالتي مباشرة وأحكم قبضته على كتفي فشعرت وكأنه قد خلع من مكانه، مغمضة عيناي أتمتم بتوتر أرجوها أن تنقلني وفجأة سطع نور شديد أعمى الأبصار، وشعرت بأني أهوي وأهوي حتى ارتطمت بشيء ما ووقعت بعدها على الأرض.

كنت جالسة على العشب وحولي تلتف الأشجار العالية بكل شموخ، وقفت وفركت جنبي من أثر هذه السقطة المؤلمة ونظرت إلى أعلى ، كانت السماء تتلبد بالغيوم البرتقالية معلنة انتهاء هذا اليوم والأغصان الجافة تتشابك من فوقي وكأنها روح واحدة.

ولكن أين أنا ؟ ما زال السؤال يتردد بعقلي، تلفت حولي فلم يكن هناك سوى الأشجار، أشجار عارية عالية ضخمة بكل مكان، وكعادتي لم أتردد في المسير إلى الأمام بشكل تلقائي كلما شعرت بالضياع ومضيت حتى أخذ مني الإنهاك مأخذه، ولم تختلف الطبيعة من حولي، إلا من ازدياد العتمة والوحشة وأصوات سحق الورق الأصفر من تحت قدمي، نزل القمر ليضفي خيالات تتراقص من حولي وتخترق ما بين الأغصان وأصوات عواء ذئاب بعيدة جعلت جسدي يقشعر خوفا بطريقة لا إرادية، حتى سمعت أصوات حوافر خيل تتقدم

بسرعة، اختبأت خلف إحدى الشجيرات عندما لمحت فرسانا أو حراسا يتقدمون من الجهة الشرقية جارين ورائهم فتاة لا حول لها ولا قوة تصرخ باكية وتستغيث ؟ إذن فالمدينة أو القرية أو أيا يكن اسمها ....قريبة من هنا.

انتظرتهم حتى ابتعدوا مسافة لا بأس بها بحيث أسمعهم ولا يروني وأسرعت الخطى خلفهم ، وبعد مدة قصيرة لاحت لي بضع منازل متناثرة بالأرجاء ومن بعيد بدت مشاعل نيران تتراقص حول مداخل قصر شامخ يطل عليها لكنه بعيد نسبيا ويقع أعلى التلة، حمدت الله وتوغلت أكثر على الطريق الترابية الممهدة حتى صرت بجانب منزل بسيط مبني من الخشب يحميه سور حجري بدائي الصنع، وكانت هنالك امرأة عجوز قصيرة القامة ترتدي ثوبا ريفيا بسيطا مزركشا لكني لم أعرف لأي بلد تنتمي، كانت تقتاد بقرة لتدخلها الحظيرة، استدركتها وركضت باتجاه العجوز فلا خوف منها على ما يبدو،

-مرحبا يا خالة دعيني أساعدك يبدو أنك متعبة.

رفعت تلك العجوز نظرها تجاهي تفحصتني من أعلى لأسفل ثم قالت بصوت هرم :

-أهلا يا بنيتي ... يبدو أن السماء قد أرسلتك لتساعديني ....شكرا للرب"

أخذتُ مكانها مكانها وسحبت لجام البقرة و أدخلتها الى الحظيرة ثم أقفلت الباب فدعتني للدخول إلى منزلها، تبعتها بصمت ليتبين لي مدى بساطة معيشتها، أضاءت القنديل ليتوهج المكان بضوء أصفر خافت، الحجرة بالكاد تحوي منضدة صغيرة وأريكتان متجاورتان وخزانة خشبية متهالكة ترتص بداخلها أوان منزلية وأكواب، جلست أراقبها حتى قطعت هي حاجز الصمت : يبدو أنك جائعة، سأحضر لك القليل من الطعام ونجلس بعدها سوياً"

أومأت لها بامتنان ففعلا كنت أشعر بجوع شديد يعتصر معدتي اعتصارا بسبب تلك المدة الطويلة التي قضيتها تائهة بالغابة، غابت دقائق قليلة وخرجت إلي تحمل طبق حساء يتصاعد البخار منه وخبزا اشتممت رائحته الطازجة فبدأت بطني تصدر ذلك الصوت الفاضح معلنة عن جوعها الشديد...

-تفضلي يا ابنتي لتأكلي قليلا ، يبدو عليكِ التعب.

شكرا لك"

وتقدمت حتى جلست بجانبها أمام المنضدة الخشبية.

-ما اسمك بنيتي ؟

- فداء " قلتها وأنا ألوك قطعة خبز بنهم شديد.

-أنتِ غريبة عن مدينتنا أليس كذلك.؟؟

أومأت لها وفمي محشو ثم أردفت بعد أن حاولت جاهدة ابتلاع ما في فمي، تهت في الغابة وقادتني قدماي إلى هذه المدينة، ما اسمها ؟؟

-أنتِ في سلوفاكيا.. ولكن يا لحظك السيئ ،من أي مدينة حضرتِ ؟

-أنا .... جئت من

تلكأت قليلا ولا علم لي بما سأجيبها فلست عالمة جغرافيا لأعرف إن لاحظتم ، لكني حدثتها بلا اهتمام:

-أنا من بلد بعيد ، قررت أن أبحث عن سبل العيش بعد أن ضاقت حالي في قريتي فقررت السفر حتى تهت في الغابة الكبيرة وقادتني قدماي إلى هنا"

ضربت العجوز على صدرها ثم قالت بحنو بالغ :يا للفتاة المسكينة ولكن أن ستقيمين.

رفعت كتفاي و هززت رأسي بصدق :

-لا أعرف إلى الآن يا أمي"

جن الليل علينا فمدت لي فراشا على الأرض وطلبت مني المكوث عندها الليلة فشكرتها على لطفها الشديد معي ، كانت بين الفينة والأخرى تنظر لي وهي تحيك قبعة صوفية فتذكرت ما قالته ونحن نتناول طعام العشاء :

-خالتي ، لماذا قلت قبل مدة أن حظي سيء لم أفهم قصدك؟

تركت صنارتيها وتنهدت وقد اكتسى الوجوم وجهها المجعد ق

ثم قالت :إنه لأمر خطير جدا بقاؤك هنا وأنا أخاف أن يصيبك مكروه فيجب أن تغادري صباحا هذه المدينة"

-لماذا ...ما السبب؟

-إن بطش الملكة لشديد، إن رآك الحراس لا بد ويقتادوك إلى قصرها فيصبح مصيرك كمصير باقي فتياتنا"

ازدادت حيرتي من كلماتها تلك والجدية التي تتحدث بها : أرجوك أكملي فأنا لم أفهم شيئا ...ما الذي يحل لفتياتكم.

-منذ مدة طويلة تأمر الملكة بإحضار الشابات من سكان المدينة إلى قصرها للخدمة فيه وهناك يختفين ولا يبقى لهن أثر ...وعندما يذهب الآباء للسؤال عن بناتهن يتعرضون للطرد و الإهانة من قبل الحراس، وهكذا فقد اختفى في هذا القصر الكبير المتوضع بأعلى التلة مئات الفتيات ولم يرجعن إلى أهلهن مجددا حتى ابنتي غادرت ولم أعد أراها.

وسالت دمعتها لتغرق وجنتيها المجعدتين فنهضت لأجلس بجانبها أمسح لها الدموع وقد انتابني خوف غامض : يا الهي ..أيعقل هذا ....ما اسم ملكتكم هذه ؟

-اقترب بجذعها مني وهي تتحدث بشكل شبه هامس خوفا من شيء ما وحدثتني بما يجري:

إنها اليزابيث...

- أيعقل أن تكون هي؟!

أطفأتُ ضوء الفانوس لنخلد للنوم...ودقائق حتى تعالى صوت شخير هذه العجوز فخرجت أجلس على الكرسي الخشبي بفناء المنزل وقد سرحت بفكري أتجمع خيوط مهمتي الجديدة ،

أيعقل أن تكون الصفحات الأخرى موجودة بقصر الملكة !ولكن أين تختفي تلك الفتيات! مئات الأسئلة تقافزت في رأسي من غموض اختفاء الفتيات ولا أعلم لما هنالك شك دفين بأعماقي أن تكون إليزابيث هي نفس المرأة التي أفكر فيها،

تذكرت فجأة الكتاب المدبوغ والأوراق...أخرجتهم من جيب المئزر وأشعلت فانوسا وبدأت بتقليب صفحات الكتاب ولكني لم أفهم من لغته حرفا واحدا ...كان يحوي رموزا ونقوشا غريبة وبضع صفحات مكتوبة بحروف عربية بعضها دون نقاط ، مع رسومات توضيحية وكأنها مقتبسة من النيكرونوميكون.!!!

قارنت بين الكتابات التي على الأوراق والتي في صفحات الكتاب ولكنها مختلفة ....لم استطع استنتاج شيء ..خبأتهم من جديد ودخلت إلى المنزل لأنام.

أطلت شمس الصباح الذهبية. بعد أن تناولت قطعة خبز وجبن أعطتني حقيبة صغيرة تحوي زادا وقالت لي: ارحلي وحاذري ، تناولت الحقيبة شاكرة عطفها والتحفت برداء طويل أسود اللون يعود لابنتها التي اختفت في القصر ، وانطلقت أتجول في السوق بين الباعة، فإن دخلت إلى هذه المدينة فمهمتي التالية هنا دون أدنى شك ... كان الزمان الذي أنا فيه الآن هو القرن السادس عشر وتعاظم الشك أكثر في قلبي..

استوقفني أحدهم وصرخ من الخلف : أنتِ "

والتفت ناحيته بحذر وقد أنزلت غطاء الرأس أكثر ليغرق وجهي فيه وقد خفق قلبي بشدة ... ماذا تريد ؟

سألته بثبات واضح ، كان رجلا بشع الهيئة أعرج القدم يمسك سرج حصانه الأسود وكأنه خارج من كتاب تاريخي.

-اخلعي الرداء يا امرأة ...أريد أن أستبين وجهك"

-و...ولكن يا سيدي إنني ..." ارتبكت من نظراته المنكبة علي فأنقذني منه أن نادى له أحد الحراس قائلا : لقد وجدنا فتاة مناسبة فلنعد إلى القصر فلقد تأخرنا"

ونظر لي قائلا بتهكم : إن حظك جميل اليوم فلم تحن ساعتك بعد"

امتطى جواده بعد أن تقدم الحراس الذين اقتادوا الفتاة المسكينة إلى القصر، زفرت زفرة ارتياح وصرت أتمتم :يا إلهي ..هل يأخذون كل يوم فتاة!

و أكملت طريقي حتى رأيت شجرة ضخمة خلف إحدى المنازل البسيطة فجلست أستظل بظلها والأطفال في الزقاق يلعبون ويتقافزون بكل مرح حتى اقتربت مني فتاة صغيرة بيدها وردة حمراء.

-أريد ضفيرة كضفيرتك رجاءا"

-أهلا يا صغيرة.

اعترضت الفتاة مجيبة بسخط:

-ماذا .ولكني لست بصغيرة أنا فتاة كبيرة ألا تصدقين

قهقهت وأجبتها: صدقتك ،ولكني أريد دليلا

صمتت الفتاة برهة تحدق بي مفكرة حتى اهتدت للدليل : حسنا ...أنا أساعد أمي في أعمال المنزل ولقد أخذت أختي اليوم إلى الحمام.

صفقت بيدي سعادة ثم اقتربت لأضفر لها شعرها الكستنائي قائلةً :

أنت كبيرة فعلا !!

فاستدارت ناحيتي والبسمة لا تفارق محياها

-أرأيتِ كنت محقة ، مممم أو ...لا ..لم أعد ارغب في أن أصبح كبيرة"

ونكست رأسها الصغير إلى الأرض بحزن ،

-لماذا ؟؟ تساءلت لتقترب مني هامسة :

-لأن الملكة تأخذ الفتيات الكبيرات ولا تعيدهم.

-لا تخافي يا عزيزتي أؤكد لك أنها لن تأخذ أحدا مجددا

فقبلتني مبتسمة و أهدتني تلك الوردة الحمراء حتى صرخ فيي أحد الجنود بصوت غليظ :

-أنتِ تعالي إلى هنا حالاً " هربت الصغيرة وتوارت خلف الشجرة فهببت واقفة وقد استبد بي الرعب ولم أرى إلا أن أركض بكل قواي دون أن اعرف ماذا يريد مني.

أطلقت ساقاي للريح وبدأ الجنود باللحاق بي حتى وجدت زقاقا ضيقا عبرت فيه واختبأت وراء احدى البراميل الكبيرة ألهث انفعالا وأنا اسمعهم يقتربون شيئا فشيئا ..وسمعت أصواتهم يتساءلون

-أنت وجدتها..

-لا ليس بعد، ابحث في ذلك الاتجاه.

-حسنا و انت اذهب الى هناك.

وعندما ابتعدا قليلا أسرعت في الجري وقد تدفق الأدرينالين في دمائي ألعن ساعة النحس التي أوصلتني لما أنا عليه الآن حتى ارتطمت بأحدهم ووقعت أرضا.

كان ضخم الجثة رأيته من الأرض كمارد عملاق ، انحنى فوقى كاشفا عن أسنان صفراء وبلهجة حبيثة صاح بي :

-أخيرا أيتها الفأرة وقعتي بقبضتي ،لماذا كنت تهربين أأنت سارقة ؟؟

رفعني من على الأرض بيد واحدة لأقف وصار يقلب وجهي بكفه الغليظة يتأمل معالمي باهتمام

- اتركني لم افعل شيئا ،لقد اخفتموني"

لكنه أبتسم بزاوية فمه وهو بحدثني :

صيد ثمين سيعجب جلالتها.

حاولت دفعه لكن دون جدوى فحملني على كتفه وكأني _كيسُ بطاطا _وبقيت اصرخ واركل ولكن دون جدوى ...وهاأنذا قد جررت إلى القصر كغيري من الفتيات.

كان قصرا حجريا كبيرا مهيب المنظر فخم الأثاث ، لكن لا وقت لتأمل معالمه والتغزل به حاليا فأنا الآن أسيرة هنا لا سائحة إن لاحظتم!!!

رموني في حجرى واسعة يبدو أنها للخدم ، .

ولجت من أمام الباب خادمة أو يبدو إنها رئيسة الخدم ، تفحصتني باهتمام ثم قالت بجمود : اتبعيني " فانصعت لها بصمت حتى دخلنا لغرفة أخرى أمرتني ان أخلع ملابسي و أرتدي زيا نظيفا لأشرع بالعمل ،

ولإي عمل برأيكم سوى خادمة بهذا القصر!!!

وبدأت عملي ،وكانت دليلتي خادمة اسمها (كاتا) أرشدتني لقاعات القصر وعرفتني على أجزائه ، وبإحدى ممراته الضخمة التي تفترش أرضيتها سجادة حمراء تتموضع عدة صور للعائلة الحاكمة وصورة ضخمة لرجل كان يبدو وجهه مألوفا وكأنني رأيته بإحدى كتب التاريخ !! سألتها ل (كاتا) فقالت لي أنه (الكونت فرنسيس ناداستي) وزوجته " ففهمت أنها المقصودة دون شك.

و بدأت أعمل كغيري من الفتيات في هذا القصر الكبير وتوطدت علاقتي مع كاتا بالرغم من أني لا أرتاح لها لغموضها ومكرها ولكني مضطرة إلى ذلك لأصل لباقي الأوراق ، لكن هل من الممكن أن تكون الأوراق هنا !!! هل صحيح ما أفعله، نفضت أفكاري الهوجاء كما أنفض حاليا الغبار عن تماثيل الصالة الرئيسية بهذا القصر ورأيت الملكة ، كانت جميلة ذات قوام ممشوق وشعر حريري تعجبت من هذا الجمال وانحنيت احتراما لها ففعلا المظاهر خادعة ، فلا يغرنك جمال الوجوه وقد تحمل القلوب اسودادا وقبحا.

مرت بضع أيام متسارعة بشكل عجائبي وساعتي لم تتحرك إلا قليلا ! وأنا أقوم بعملي وألاحظ اختفاء الفتيات اللاتي كنت أعمل معهن، حتى أتى ذلك اليوم ورأيت امرأة جميلة جدا في القصر شكلها مريب إلى حد كبير وكأنها عرافة ولا أعلم لما تذكرت فازيكاس بهذه اللحظة ،سألت كاتا عنها فهمست لي ان اسمها (آنا دارفوليا) وقد كانت الأخيرة سوداوية بحق في كلامها وردائها وشعرها ....وكانت تلك

(الآنا) صديقة وجليسة الملكة تقضي معها ساعات طوال عندما تأتي ولا أحد يعلم ما يدور بينهما من حوار.

حككت شعري قليلا أتفرس بمعالم هذه السيدة الغريبة، صببت لهما الشاي وانصرفت لملاقاة كاتا وكنا نثرثر كعادتنا..تحدثنا عن آنا..

-شكلها مم كيف سأصفها.

-ساحرة.

-آوه نعم هي كالساحرات..

-لا ...لا ...هي ساحرة ، مشعوذة ، تقوم بعمل تعاويذ وما شابه وأحيانا تبيع بعضها للملكة.

تركت كأس ماء كنت سأرتشف منه وأفلتت مني شهقة

-ماذا أأنتِ جادة !.

-عما تتكلمين أنا لا أفهم حرفا واحدًا مما تقولين..

-لا عليك كاتا ...لا تهتمي لي .والآن سأتابع عملي ..وداعا.

بقيت أقوم بالتنظيف أمام الصالة التي استضافت بها الملكة تلك الساحرة حتى خرجتا أخيرا

وذهبت الساحرة آنا مع خادمة من القصر لغرفة الخدم واقتادتا فتاة بين الممرات ، تركت الممسحة والدلو و لحقتهما بخفة دون أن تلحظا وشهدت إدخالهما الفتاة لغرفة في أسفل القصر كان ممنوعا علينا كخادمات أن ندخلها سوى قلة قليلة جدا ولا أعلم السبب فلا احد يبوح بما في الداخل...

وبعد قليل خرجتا ووقفتا زمنا قصيرا حتى أقبلت الملكة بكل كبرياء ودخلت الغرفة مقفلة الباب خلفها....

بعد أن أقفلت الملكة الباب غادرت (آنا)وبقيت الخادمة وأنا أختبئ و أفكر ...أأتبعها إلى منزلها أم أروي فضولي في أن أعرف مصير هذه الفتاة التعيسة !

واتخذت قرارًا و اتبعتها فهي التي ستقودني إلى هدفي الذي أبحث عنه، فدخلت مسرعة المطبخ آخذ سلة وأضع فيها بعض الفواكه الطازجة وركضت لألحق بالساحرة حتى رأيتها تعبر البوابة فمشيت بجانبها و القيت عليها التحية.

-مرحبا سيدة دارفوليا ...بأمر من الملكة ولمجهودك العظيم أرسلتني احمل لك هذه السلة فأرجو ان تتقبليها"

نظرت إلي بطرف عينها وابتسمت نصف ابتسامة قائلة بتهكم :

-اها ..حقا ليس من عادتها ؟ولكن حسنا لا نستطيع رفض هدايا الملكة هاتها وبلغيها تحياتي.

أبعدت السلة فورا عن متناول يدها وقلت :

-لا أرجوكِ الأوامر أن أوصلك للمنزل.

-ممم حسناً اصعدي العربة.

وصعدت بجانبها وأنا أنظر للحارس و أومئ له برأسي أني سأعود قريباً ...وانطلقت العربة

يجرها الحصان حتى توقفت أمام منزل كبير جميل نزلنا وهمت بفتح الباب فأسرع أحدهم يصرخ ويتوسل للساحرة..

-سيدة آنا إن سيدي اللورد يريدك حالًا ...أرجوك تعالي معي.

-حقا و ولكن.

-لا عليك سيدتي سأضع السلة في المنزل وأغادر فورا أنت اذهبي لعملك.

-حسنا حسناً سآتي معك" قالت له و فتحت الباب لي ثم غادرت معه وأنا أكاد احلق من فرط السعادة فقد قدم لي هذا الخادم معروفا كبيرا لن أنساه أبدا.

دخلت الشقة المعتمة واتجهت الى الستائر ففتحتها لتدخل أشعة الشمس وتنير المنزل قليلا وبدأت رحلة البحث عن تلك الوريقات هنا وهناك وفي المكتبة والغرف والعلية ولكن دون جدوى فلم اعثر على ضالتي.

منزلها كان بسيط و أنيقٌ جداً ....أيعقل ان تكون هذه المرأة ساحرة! فلا يوجد أي دليل مهما كان صغيرا على أنها مشعوذة ؟يبدو أنها تعمل بمكان آخر.

فخطر لي أم اتجه إلى القبو فهو خير مكان لعمل هذه الأشياء السخيفة، أشعلت فانوسا ...وفتحت الباب الخشبي ونزلت درجات السلم وكان قبوا كبيرا مليئا بالصناديق والكراكيب وطاولة خشبية مهترئة.

آوه كيف سأبحث بين تلك الأشياء!؟؟

وبدأت بفتح الصناديق واحدا تلو الآخر ولكن محتواهم مجموعة عقاقير زجاجية وأعشاب غريبة رائحتها نتنة ..وبضع قوارير فارغة و كراكيب وغيرها لا يوجد شيء.

وبقي صندوقان فقط في آخر القبو ..حاولت الوصول إليهما وفتحت الأول كان مليئا بالكتب توسعت ابتسامتي وقد تجدد الأمل أخيرا وبحثت بين الكتب ولكن لم يكن هنالك من شيء.كلها كتب قديمة بلا قيمة.وفجأة سمعت صوت باب المنزل يفتح فتجمد الدم في عروقي و أحسستُ بوقع خطواتها التي تجوب المنزل فأبعدت الصندوق قليلا واختبأت خلفه مطفئة الفانوس عندما فتحت الساحرة باب القبو ودخلت فنظرت حولها قليلا وأخذت قارورة من أحد الصناديق وأزاحت واحدا آخر وكان هنالك مقبض ما في الأرض تحت الصندوق فسحبته حتى انكشف ممر سري نزلت درجاته واختفت بداخله...

اقشعر بدني وضحكت على غبائي لأنه لم يخطر على بالي إزاحة الصناديق عن مكانها ،ولحقت بها بهدوء شديد أنظر من الفتحة علي أرى شيئا ولكن دون فائدة ..فقررت الاختباء مرة أخرى خلف الصناديق لحين خروجها وبعد مدة من الزمن خرجت وأرجعت السيدة كل شيء إلى مكانه وخرجت من القبو مغلقة الباب خلفها...

انتظرت طويلا جدا حتى كمدت حركاتها ولم أعد أسمع خطواتها وأظن أنها قد نامت خرجت بهدوء شديد من مخبئي بعد أن شعرت بألم كبير في أطرافي ، أمسكت الفانوس والظلام كان دامسا بحق أخرجت كبريتا من جيبي وأشعلت الفانوس وبدأت أتذكر موضع ذلك الصندوق وأزحته حتى سحبت ذلك المقبض ونزلت بضع درجات حجرية لأسير بعدها بممر طويل مظلم ورائحة العطن والرطوبة تكاد تخنقني ومشيت مطولا حتى وصلت لغرفة ما..وبدأ الفانوس ينير أجزاء تلك الغرفة ونظرت إلى زاوية ما صرخت فوقع الفانوس من يدي وانطفأ فكتمت فمي لكيلا تخرج صرخات أخرى والظلام كان حالكا و انا أتلمس الأرض بحثا عن الفانوس والعرق يتصبب من جبهتي..

وجدته أخيرا وأشعلته بيد مرتجفة وهذه المرة رفعته لأتأكد من الذي رأيته!!!...

يا إله السموات!!!

عشرات الجماجم مرتبة فوق بعضها على رفوف الحائط وتحتها برميل صغير مليء ب ب.....

-دماء !.

لم استطع التحمل أكثر صرخت بها و أشحت بنظري وتقيأت كل شيء في جوفي وترنحت لأصل إلى الكرسي جلست عليه أمام طاولة حتى هدأت قليلا...

فبدأ شيء ما بجيبي يهتز ويهتز بقوة تلمسته فإذا هي الأوراق رفعتها غير فاهمة ما حل بها فكانت تضيء و مالت قليلا باتجاه معين!

إنها تدلني على شيء ..إذا أنا في المكان المناسب حتما " حملت الفانوس وتوجهت إلى الجهة التي دلتني عليها الأوراق ولكنه مجرد حائط...

دققت النظر أكثر حتى وجدت مقبضا حديديا سحبته فانفرج باب يصل إلى ممر معتم دخلته وكان طويلا ضيقا ولاحت لي نقاط ضوء خفيفة متباعدة بآخره تابعت مسيري لأصل إلى طريق مسدود يحوي حفر صغيرة تطل على مكان ما ...يبدو أنها تتجسس على أحدهم قلتها ونظرت عبر إحدى الحفر

فإذا بي أرى الملكة اليزابيث !!ا إنها الغرفة المقفلة نفسها !..

كانت اليزابيث جالسة على كرسي تمسك سكيناً يقطر دما وتبتسم بنشوى كبيرة وهي تنظر إلى شيء ما في جهة أخرى ....انتقلت إلى الحفرة الأخرى فوجدتها!

توسعت حدقة عيني وكتمت شهقة وأنا أرى جثة فتاة معلقة بالسقف تقطر الدماء من جميع أجزاء جسدها على حوض استحمام حوله على الأرض تتناثر زهور حمراء وخلفها جثتان أو ثلاث مكومتان فوق بعضهما ومليئتان بالثقوب المتفاوتة بالأحجام وآثار التعذيب واضحة على أجسادهن.

بدأت ارتجف هلعا واقشعر بدني من هول هذا المنظر، خلعت الملكة ردائها تقدمت بخطى بطيئة حتى انزلقت بداخل الحوض المليء بالدماء!!!

إنها هي لقد عرفتها .. ...إنها الملكة اليزابيث باثوري وضربت على رأسي صائحة برعب جمد الدماء بعروقي : كما توقعت.

عدت إلى الغرفة مجددا شاخصة ببصري إلى الفراغ ولم تعد قدماي تحملانني فجلست على الكرسي أرتجف حتى وجدت كتابا على الطاولة وريشة للكتابة

يبدو أنها تكتب شيئا هنا فتحت على العلامة التي كانت تضعها وقرأت....

¤¤¤¤

الضحية رقم ٥٩٨ ...اليانور ابنة الفلاح جورج

الضحية رقم ٥٩٧ ...ليزا ابنة التاجر ادوارد

الضحية رقم ٥٩٦... كيتي ابنة الأرملة آرون

¤¤¤¤

فتحت فمي ببلاهة و انا اقلب كالمجانين كل صفحات الكتاب ...إنها تدون أسماء الضحايا التي قتلتهم تلك الخبيثة ولكن لماذا ؟؟

عدت لأول صفحة في الكتاب وصرت اقرأ ما خطته فيه

1560..

الفتاة ذات الدم الملكي شهدت مقتل أمها وشقيقتيها عندما ثار المزارعين على الأسرى الحاكمة ونجت هي من المجزرة وعندما بلغت الخمسة عشر عاما تزوجت الكونت فرنسيس ناداستي...

((وبهدف التسلية بادئ الأمر الكونت قرر تعليم الملكة أساليب التعذيب قبل القتل من خلال دروس حية قامت من خلالها بتقطيع أوصال ورؤوس الأسرى الأتراك وكان يلاحظ استمتاعها وابتكارها أسالیباً جديدة لم يرى مثلها الكونت وأعجبته))

وقلبت الصفحات لأقرأ مجدداً....

((الملكة إليزابيث كانت تشعر بالملل الشديد بغياب زوجها المستمر إلى الصيد أو إلى العمل حيث كان يغيب أحيانا لأكثر من شهر فتبقى الملكة وحيدة.

وأنا.....

علمت الملكة الاستحمام بالدماء لل.....

وأحدهم أغلق الكتاب بقوة صرخت ونظرت فوقي فإذا هي آنا دارفوليا تقف والشرر يتطاير من عينيها

-أيتها الحمقاء الوضيعة كيف دخلت إلى هنا ؟؟

-أ أنا .....لقد.

-اخرسي"

قالتها و وتهجمت بكل قوتها واجهتها وصديت ضربتها المجنونة

وقالت بحقد: أيتها الحمقاء نسيتِ أن تغلقي الستائر ..أنا لا أفتحها أبداً، ظننتك عبثت بمنزلي لتسرقي"

و قذفتني بزجاجة الحبر فتكسرت على كتفي فسقطت أرضاً وانغرست بضع بلورات في كتفي وصرخت ألما وأنا أحاول إبعادها عني

-تفتقرين للياقة أيتها المتخلفة " قالتها لي فدفعتها بعنف ليرتطم رأسها برف الجماجم فوقعت علينا جميعها واهتز البرميل المليء بالدماء ووقع أرضا ساكبا كل محتواه على الأرض انتهزت فرصة تشتتها وزحفت حتى أمسكت بجمجمة كانت تحت الطاولة وهويت بها على رأسها قائلة :

- و أنتِ تفتقرين إلى الأسلوب الأدبي في كتاباتك اللعينة"

ضربتها بعنف فهمدت حركاتها أخيرا

أخذت الهث بقوة وقد تبللت بالكامل من هذا السائل اللزج المقرف الذي سكب على الأرض

وبين كل تلك الفوضى رأيت كيسا بلاستيكيا ملفوفا بإحكام أمام البرميل، تناولته وفتحته فإذا هي مجموعة أوراق زفرت وجلست أرضا أهدئ نفسي...

و قارنتها بين أوراقي القديمة فإذا هي تكملتها ضحكت وبدأت أمسح الدم من وجهي وأنا انتظر أن أنتقل إلى مكان أخر ....ولكن طال انتظاري دون ان يحدث شيء.

ترى ما السبب؟؟

الرقم المطلوب خارج نطاق الخدمة حاليا يرجى المحاولة لاحقاً

-اللعنة ...أين أنتِ فداء ؟

تساءل علاء وقد اكتسى وجهه الخوف بعد أن

اتصل بها عشرات المرات ولكن دون أن تجيب فبدأ بالدوران في المنزل كالمجانين، حتى تذكر

مدير التحرير الأحمق الذي أرسلها بمهمة ما ..أخرج رقمه واتصل به...

-سيد عصام أنا علاء زوج فداء.

-أهلاً علاء كيف حالك.

-بخير بخير.

-وكيف...

وقاطعه قائلا.....اسمع لا وقت للأحاديث التافهة الآن ....أين فداء.

-ماذا ..كيف تجرؤ على مخاطبت...

-يووووه يا هذا ...إن هاتفها مقفل منذ البارحة وأنا لا أعلم عنها شيئا أعطني اسم تلك

القرية اللعينة التي أرسلتها إليها.

-ممم حسنا حسناً ولكن هدئ من روعك"

وأملاه اسمها فانطلق بسيارته مسرعا يجتاز الطريق المؤدية إلى القرية...

****

وقفت فداء بوسط الغرفة وهي تشعر بالقرف من هذه الجماجم والدماء التي تناثرت في المكان

وزاد الأمر سوءا ذلك الجرح الذي بكتفها بسبب انغراس البلورات المتكسرة فيه مما آلمها

كثيرا، نظرت نظرة أخيرة لآنا الراقدة على الأرض ظنا منها أنها لقيت مصرعها و

بدأت بالرجوع عبر الرواق الطويل حتى تذكرت الكتاب الذي كانت تقرأه قبل مواجهتها

مع آنا فرجعت وأخذته معها وعادت أدراجها إلى القبو ومن ثم إلى المنزل أخذت منديلاً وبدأت تمسح آثار الدماء عن وجهها وتوجهت إلى غرفة النوم انتقت وشاحا طويلا تغطي فيه هيئتها المزرية لتغادر المكان بعدها.

الحمد لله أن الدماء لم تصل إليهم" قالت هذا وهي تخرج الكتاب والأوراق من جيب فستانها وتلفهم في قماش كان في الخزانة وخرجت من المنزل تفكر أين عساها أن تذهب فلم يعد بالإمكان أن تعود إلى القصر بعد الذي حصل، حسمت أمرها وذهبت إلى منزل تلك العجوز التي عرفتها عند وصولها فلا مكان آخر تذهب إليه ،حاولت تذكر الطريق الذي يودي بها

إلى منزل العجوز وسارت به حتى وصلت أخيرا بعد إنهاك.

طرقت على بابها بهدوء شديد ...كان الجو باردا جدا في هذه الليلة انتظرت حتى سمعت خطوات العجوز البطيئة وقالت من خلف الباب :

-من يطرق بهذا الوقت من الليل .؟

-أنا فداء أرجوكِ افتحي لي يا خالة.

وفتحت أخيرا العجوز لها.

-مرحبا أيتها الأم الطيبة..

-فداء ! تفضلي بالدخول ،

-شكرا لك ولكن أأستطيع المكوث عندك بضعة أيام وبعدها سأذهب.

-لا عليك على الرحب والسعة ولكن ما الذي جرى لك هل أنت بخير ؟

-قصة طويلة سأخبرك بها لاحقا رجاء أريد الآن أن استحم فرائحتي لا تطاق...

-حسنا سأسخن الماء على الحطب.

استحمت واستبدلت ملابسها بأخرى من عند العجوز واستلقت على الأريكة علها ترتاح قليلا فقد كان يومها شاقا فعلا وقارب الفجر على البزوغ.

اطل الصباح بنسماته الباردة تناولت الفطور و قصت على العجوز ما جرى معها بالتفصيل وأخذت الكتاب تقرأه بصوت عال لتسمعها حتى وصلت إلى النقطة التي قاطعتها بها آنا وتابعت بتركيز.

((وأنا علمت الملكة الاستحمام بالدماء، فبعد موت زوجها عام ١٦٠٠ أخبرتني و بعد أن تجاوزت الأربعين أن الشيخوخة بدأت تعلن نفسها ، وهي تخاف أن تتهدل ملامحها الجميلة ....

فابتسمت لها قائلة جربي الاستحمام بالدماء فهي تشد البشرة كنت أحقد عليها وأتمنى أن تلتقط جرثومة ما من الدماء الملوثة لتفتك بها .. وقتها كافأتني بمبلغ كبير من المال ففرحت جدا ...ولم أكن أعرف أني فتحت باب الجحيم على نفسي ....

كنت أقصد بكلامي أن تستخدم دماء الحيوانات ولكنها فهمتها عكس ذلك تماما بسبب نفسيتها المريضة والسوداوية، فتخلصت من أطفالها ونقلتهم ليعيشوا بقصر والدة الكونت لتتفرغ لحفلاتها الخبيثة.

فبدأت بالخادمات الصغيرات اللاتي يعملن بالقصر تذبحهن واحدة تلو الأخرى وتقطع شراينهن وتعلق بالسقف الجثة التي تقطر دما على الحوض حتى يمتلئ وتندس بداخله تشعر بالاسترخاء الشديد .

وكل همها كان أن تحصل على الشباب من دمائهن النقية .تناقص عدد الخادمات في القصر...

وكان لا بد لها أن تجدد كادر الخدم من جديد فأمرت خادمها الأعرج أن يحضر الفتيات الفقيرات من القرى المجاورة بحجة العمل ويغريهن بالمال .... وطبعا نفذ الخطة وقد اقتيدت الفتيات إلى القصر ليشهدن موتهن بأبشع الطرق.

وتوالت الأيام وتوالت أطماعها فلم تكتف بالاستحمام بدمائهن بل بدأت تشعر بنشوة كبيرة عند تعذيبهن وتشويه أجسادهن وحرقهن وتجويعهن أسبوعا أو أكثر ...وكنت بمساعدة كاتا واثنتان من الخدم نتخلص من الجثث بعد قطع رؤوسهن ثم يقوم الأعرج بعملية الدفن في السفح المقابل للجبل الذي يقوم عليه القصر...

وازداد تفكيرها وحشية أن جربت شرب الدماء علها تكون أسرع في القضاء على التجاعيد وتجديد شبابها

وأمرتني بعدها أن أحفظ الدم الطازج بقوارير زجاجية لتشربه لاحقاً...

الفصل الخامس

(القصاص)

أغلقت الكتاب وقد اقشعر بدني ولم أعد أستطيع أن أقرأ حرفا واحدا، هذا اعتراف صريح على جرائمهن الشنيعة بحق الفتيات..شهقت العجوز وبدأت بالبكاء بعد أن عرفت مصير ابنتها التي اقتادتها الملكة الى القصر منذ زمن بعيد هدأت من روعها وجالستها أطمأنها حتى راحت في سبات وتعالى شخيرها....

فخبأت الكتاب بالحقيبة ونظرت إلى ساعتي وسرحت مجددا بهذا المكان والزمان حتى تأكدت أن الوقت هنا يمر بسرعة كبيرة جدا بالمقارنة بعالمنا الحقيقي فعدة أيام هنا تساوي بضع دقائق فقط هناك وطبعا كانت ساعتي تظهر الوقت الحقيقي في عالمنا لذالك عقاربها تسير ببطئ شديد .

وتكاثفت الأفكار في رأسي وتزاحمت حتى غلبني النعاس ورحت في نوم عميق مجددا..

وصل علاء إلى القرية ولم يترك مكانا إلا سأل فيه ولكن دون جدوى فلم يعرف أحد عنها شيئا وشعر بالخوف يتنامى داخله فذهب إلى مركز الشرطة ليقدم بلاغا باختفائها ليجيبه الشرطي...

-أسف سيدي لا بد أن تمر أربع وعشرون ساعة كاملة قبل تقديم البلاغ..

-ولكن هي مختفية من البارحة.

-القوانين أن تكتمل الساعات الأربع والعشرون انتهى

ووقف يحدق بالشرطي الأحمق وكان مستعدا لتشويه وجهه لولا أن تمالك نفسه وغادر بحنق.

جاب القرية طولا وعرضا حتى تعب وجلس بسيارته يفكر أين عساها أن تكون ...فتذكر صديقه الذي يعمل بدائرة المرور اتصل به وأملاه أوصاف السيارة ورقمها ومكان اختفائها وطلب منه أن يبحث عنها بأسرع وقت...

وفعلا لم تمر بضع ساعات حتى جاءه الاتصال بأن السيارة المفقودة شوهدت آخر مرة على بعد عدة كيلو مترات من القرية وأملاه إحداثيات الموقع.

شكره كثيرا وتوجه إلى مكان سيارة فداء وقد خفق قلبه بقوة.

****

مرت عدة أيام على فداء وهي مقيمة عند هذه العجوز وبدأت جراحها تلتئم وكانت تخطط لما ستفعله للتخلص من هذه المدينة التي علقت بها.

كانت جالسة تفكر ...أيعقل أن عدم انتقالي لأني قتلت آنا ؟ هل يعني أني غيرت مجريات التاريخ؟

لكن ما العمل الآن ؟ وماذا أفعل بهذا الكتاب اللعين الذي كتبته تلك المشعوذة؟ طرق باب المنزل بقوة ففتحت لتفاجئ بأن القادم هي (كاتا) التي تعمل بالقصر...

-و ولكن كيف جئتِ .؟كيف علمتِ مكان تواجدي.

خطت إلى الداخل وهي ترتعش خوفاً وأغلقت الباب خلفها وهي تلهث بقوة.

- أنتِ! ما الذي جاء بك الى هنا هذا منزلي؟؟.

-كاتا ! أنتِ ابنة تلك العجوز؟

-أمي ... هل هي بخير؟

وبدأت تبحث بأرجاء المنزل حتى أقبلت والدتها وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

-أمي.

اخرسي ..قالتها العجوز وصفعت ابنتها حتى انهارت على الأرض تبكي بحرقة.

-ابنتي قاتلة ...مجرمة... سفاحة ...تساعدين تلك السفاحة لو كنت بعداد الموتى البريئات لكان افضل لي من أراك بهذا الحال"

-لا أمي أرجوك ....سامحيني، لقد كنت عبدا مأمورا فقط لم أستطع تجاهل الأوامر والا قتلتني بدون رحمة

وجلست كاتا تحضن أمها وتقبلها باكية ..حتى انحنت فداء لتأخذ بيد العجوز وابنتها وتجلسهم على الأريكة.

-ما الأمر أخبريني كاتا وكيف هربت؟

-انه ....إنه الكونت (جورجي ثورذو)

-من؟!

-ابن عم الملكة جلب جيشا من جنوده ليلة البارحة ليحتل القلعة

فأكملت فداء القول :

-فوجد الفتيات اللاتي تقتلهن سيدتك أليس كذلك.

-نعم.

-اسمعي كاتا مع أني سعدتُ جداً عندما اكتشف أمر تلك الملكة الظالمة ومساعديها إلا أني سأساعدك فأنت ابنة تلك الفاضلة التي اعتنت بي ولكني أريد منك معروفا.

ما الذي تريدينه مني أنا جاهزة"

-لم يعرف الكونت تورطك بعد أليس كذلك ...

-لا ولكن إن اعترفت الملكة والخادمات ف..

-لن ننتظر ليعترفوا ...كم هو تاريخ اليوم واحكي لي المشهد بالتفصيل عند وصول الكونت حتى هروبك."

وبدأت تروي لي ما جرى وما الذي خفي عني وأنا اكتب على هذا الكتاب مكملة ما بدأته أنا

****

التاسع والعشرون كانون الثاني ١٦١٠

جمع الكونت جورجي جنوده واقتحم على الملكة قصرها .....فوجد فتاة ميتة لا يحوي جسدها قطرة دم واحدة ...وأخرى معلقة بحبل تقطر الدماء من شراينها ...ولكنها ما تزال على قيد الحياة.

اقتحموا القبو و تفاجئوا بعشرات الفتيات محبوسات بزنازين وهن خائفات مذعورات...فأطلق الكونت سراحهن وأمر بإلقاء القبض على الملكة وحبست بغرفتها ريثما يتم التحقيق بالقضية.

ملحوظة :يتم تسليم الكتاب بعد قراءته الى الكونت جورجي ليتم القصاص العادل بأسرع وقت.

*****

سلمتها الكتاب بعد أن دونت هذه الأسطر وقلت لها الآن ستذهبين إلى القرية وتسلمين هذا الكتاب الى القاضي شخصيا .....وبهذا ستنتهي قصة الملكة السفاحة

تلكأت قليلا قبل أن تتخذ قرارها وبتشجيع من والدتها انطلقت إلى مهمتها، حل المساء فعادت منهكة القوة بعد أن سلمت الكتاب وجلست تقول لي ....ما العمل الآن.

-لا تقلقي إن غدا لناظره لقريب...وتمنيت أن يكون تفكيري صحيحا هذه المرة

****

انتصف الليل شديد البرودة و كان علاء واقفاً أمام باب الكوخ الذي ركنت فداء بجانبه سيارتها.

منزل من هذا؟

وقف بتوتر وارتباك أمام هذا الكوخ الخشبي الشبه متهالك وهو يبدي اندهاشه قبل أن يطرق الباب عدة مرات ولكن ما من مجيب فأخذ بالصراخ العنيف دون أن يجيبه أحد حتى ركل الباب بكل قوته ودخل كالمجانين ولكنه وقف ذاهلاً عندما رأى أنه منزل مهجور قديم جدا تقدم قليلا ودقق النظر فوجد حقيبتها مرمية على الأرض.. هدئ من روعه واطمأن على أنها بخير فلربما تعطلت سيارتها أو نفذ وقودها واحتمت بهذا المنزل.

هم بالبحث في أرجاء المكان حتى أتاه ذلك الصوت الناعم...

-أغلق الباب يا هذا ...ألا ترى أن الريح تشتد!!

-من! من هناك ؟!

صار ينظر حوله ليرى من أي اتجاه ظهر حتى عاوده ذلك الصوت مجددا :

-تقتحم منزلي وأنت تصرخ كالمجانين ولكن لا بأس سأسامحك"

-هي أياً كنت ...أظهري نفسك الآن حالا.

فتقدمت اللعبة بخطواتها الصغيرة بابتسامة عابثة لتتعلق بقدم علاء الذي نظر لأسفل عندما لامستها ساقه فازدادت ابتسامة الدمية له ببراءة ، تجمد الدم بعروقه يحدق فيها بذهول و صرخ صوتا يفزع الأموات بقبورهم وبدأ بنفض رجله ويركل في الهواء ف سقط أرضا.

قهقهت اللعبة من تصرفه الأخرق وعاودت الحديث من جديد :

-كم أنت مضحك يا رجل كف عن هذا التهريج الآن لن اؤذيك ،لقد ارتجت معدتي تبا لك .

-لعبة ملعونة لعبة ملعونة لعبة ملعونة ....ابتعدي ابتعدي.

صرخ علاء بها كالمجانين وقد جف الدم بعروقه فلطمته على وجهه بيدها الناعمة لإسكاته.

-اخرس الآن لنتكلم بتعقل"

فصمت ونظر لها ذاهلاً ووضع يده على فمه كيلا يصرخ مجددا وهو ممدد على الأرض يرفع رأسه ينظر لها ببلاهة حتى مشت بخطى بطيئة وقالت : لا تكن جبانا زوجتك كانت أقوى منك.

.... -فداء ...ماذا فعلت بفداء !!

ونهض متحفزا وقد تذكر أن عليه البحث عنها

-لا تقلق هي بخير"

بقي محدقا فيها لزمن طال حتى تقدمت منه مجددا عرفت أنه أهل للثقة لذلك ابتسمت له ببرائه وقالت إن كنت تريد معرفة حكايتي فامسك بيدي وانظر لعيني"

شعر بارتباك طفيف والذهول ما زال يسيطر على كيانه لكن فضوله في معرفة قصتها جعلته بمد أصابعه لتلامس كفها الرقيقة الصغيرة وثبت عينيه على عينيها اللتين تنبضان بالحياة.

ومرة أخرى تعاود عينا الصغيرة البوح بقصتها المأساوية ليرتعد تارة ويحزن تارة أخرى.

أخذته اللعبة برحلة عجيبة حقا وعندما انتهى كل شيء احتل الوجوم تقاسيم وجهه، شعر بما عانته تلك الطفلة لكنها ابتسمت له لطمأنته أن كل شيء سيكون على ما يرام...

ويعد صمت طال سألها : لكن أين فداء ؟

-أرسلتها لتجلب لي شيئا....

رفع حاجبا ونظر لتلك الدمية الصغيرة مستفسرا:

-كيف...!! ولكن الى أين أرسلتها ؟؟

-نقلتها عبر التاريخ.

-حسنا متى ستعود! نعم!! تاريخ!!؟؟

واستدرك ذلك فاتحا فمه بغباء.

-لا تقلق قلت لك لن تصاب بمكروه ولكن اسمع إن كنت تريد أن تراها لتتأكد فساعدني.

-بماذا ؟طبعا أريد أن أرى زوجتي.

_احملني علاء"

وتعلقت مجددا بساقه تردد قليلا على هذا الوضع الذي لا يحسد عليه ...لم يتخيل بحياته كلها أن يتكلم مع لعبة لا وبل مسحورة كذلك ظن انه تلقى صدمة على رأسه وللحظة تخيل ان هذه البريئة هي اللعبة عروس تشاكي وسيتشاركان قتله وتشريحه!!! نفض الأفكار عن رأسه، حملها وأمرته بالتوجه إلى المكتبة قائلة : ابحث عن كتاب أصفر قديم

-ولكن أغلب هذه الكتب صفراء يا هذه...

-يا إلهي كم أنت بليد ...لذلك قلت لك ابحث...إن لونه أصفر ليس مصفرا بفعل الزمن

...فكر بعقلك اتفقنا.

وقفزت على أحد الرفوف تبحث بدورها

_لعبة حمقاء" قالها مغتاظا وبدأ بالبحث بين الكتب يفتحها واحدا تلو الأخر حتى فتح كتابا أصفرا ورأى صفحاته محفورة بعمق يتموضع بداخلها مفتاح قديم جدا...

-أتبحثين عن هذا يا رأس اللعبة"

_ممتاز ...هيا اتبعني " .فانصاع لها غير فاهم لما يجري معه وحملها واضعاً إياها على الأرض من جديد حتى مشت ووصلت إلى المطبخ وأمرته أن يزيح خزانة صغيرة من أمام الحائط ....نفذ طلبها ودقق النظر خلف الخزانة على الحائط فوجد فارقا صغيرا بين ألواح الخشب ، جلب سكينا وبدأ يحاول اقتلاع الألواح حتى أخرج صندوقا فتحه بذلك المفتاح فإذا به يحوي كتابا غلافه أسود مدبوغ بجلد سميك.

-كل هذا البحث لأجل كتاب!!!

كف عن الثرثرة أحضر المرآة المعلقة في الغرفة واتبعني.

جلس بعد أن وضع المرآة الصغيرة على الأرض وجلست اللعبة وفتحت الكتاب الذي كانت هنالك عشرات الصفحات مختفية منه حتى وصلت لهدفها ..تلمست بيدها على كلمات الصفحة وبدأت تتمتم بإلقاء التعويذة فأصبح صوتها مرعبا مخيفا واهتزت الأرض وما عليها وبدأ المصباح العتيق فوق رأسيهما بالوميض فنظر لها علاء وعيناه تزداد اتساعا وقد بدأ يشعر بالرهبة حقا.....

حل صباح اليوم الرابع أخيرا واستيقظت الفتاتان مع العجوز على صوت قرع الطبول والحراس يجوبون الساحات يصرخ أحدهم مناديا الشعب بأعلى صوت....

اليوم عند الحادية عشرة صباحا على كل سكان القرية التوجه الى ساحة (بيتشا)

خرجن إلى باب المنزل وهن يسمعن الحراس فابتسمت فداء عند سماعها هذه الأخبار فقد عرفت أن خطتها قد نجحت ولا شك..

استدارت ناحية كاتا التي تقف خلفها مباشرة وقالت لها:

-اسمعي كاتا الآن بإمكانك الهروب....اقطعي الغابة وابحثي عن قرية تقيمين فيها وابدئي حياة جديدة ونظيفة أفهمت.

-حسنا ...شكرا لك فداء أنت حقا طيبة ولكن أمي!!

-لا عليك أنا بأمان هنا فليكن الله في عونك"

قالتها العجوز لابنتها وهي تمسح دموعها التي بدئت تسيل على وجنتيها المجعدتين فقبلت كاتا والدتها ولملمت حاجاتها بسرعة وركضت من خلف المنزل حتى اختفت بين الأشجار العالية وتوغلت في الغابة.

*****

الشمس تتوسط كبد السماء والآلاف من سكان القرى مجتمعين في ساحة (بلدة بيتشا) حول المصطبة الخشبية الكبيرة ...والجلاد يفرقع أصابعه منتظرا البدء بعمله.

وصلت العربات اللاتي يحملن الخادمات والأعرج وهم منكسين رؤوسهم خائفين مع هتاف السكان الذي بدأ يتعالى للأخذ بالثأر لأرواح بناتهن.

حتى صعد القاضي على المنصة و أصدر الحكم...

اليوم وبتاريخ ٢ كانون الثاني ١٦١١ و بأمر من الكونت جورجي حاكم مقاطعة بيتشا الحالي يصدر ما يلي:

-يقطع رأس الخادم الأعرج فيكو.

-تقطع أصابع الخادمات أيلونا جو. ودوركا وتحرقان أحياء....

وعلى من يجد الخادمة الهاربة كاتا ...عليه تسليمها أو التبليغ عنها لتلاقي جرائها العادل.

-ساحرة القصر آنا دافوليا تشنق حتى الموت.

-المعزولة عن الحكم ..اليزابيث باثوري حكم عليها الإمبراطور بالسجن المؤبد بغرفتها وتسد النوافذ والأبواب بالحجارة جزاءا على ما اقترفته يداه

هلل الجميع بخلاصهم من المجرمين وبدأت عملية الحساب عندما طار رأس الأعرج وتدحرج على الأرض مع رأس الساحرة آنا وربطت الفتاتان على عمود خشبي بعد تقطيع أصابعهن وأضرمت النيران تأكل أجسادهن التي أخذت بالتلوي مع صرخاتهن الخارجة من لهيب الجحيم ، أما فداء فكانت وسط الجمهور ذاهلة لعدم موت الساحرة آنا عندما ظنت نفسها قد قتلتها ....إذن كانت فاقدة للوعي فقط بعد أن ضربتها"

سطع من حقيبتها وهج أخضر شديد قطعت حشود السكان ووقفت بعيدا تفتح الحقيبة فإذا بالكتاب المدبوغ يصدر ذلك الوهج فتحته فرأت على صفحاته شجيرات الغابة العالية التي وقعت فيها عند وصولها إلى هذه القرية..

-هل علي العودة الى هنالك ؟تساءلت قليلا ثم ما لبثت أن عادت أدراجها إلى منزل العجوز ومن خلفه تغلغلت بين الأشجار على نفس الطريق التي حضرت منه حتى وصلت إلى بئر حجري بمنتصف الغابة!!

-ولكنه لم يكن موجودا من قبل! أيعقل أني قد أضعت الطريق ؟ تساءلت و مالت على البئر قليلا فرأت شيئا ما يلمع بالأسفل لم تدري ما هو، تلفتت حولها فإذا بحبل على جانب البئر أخذته وربطت طرفه بالشجرة وأدلت بالحبل إلى الأسفل وبدأت بالنزول... وأحدهم قطع الحبل فجأة!

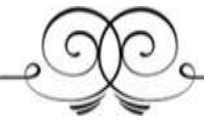

الفصل السادس

(مكان غير متوقع)

(فداء)

سقطت على الأرض بعد أن قطع الحبل ولمحت إحداهن تختفي في الأعلى نحيلة جدا وشعرها اسود متماوج طويل ، فبدأت بالصراخ فتردد صدى صوتي مرات ومرات وطلبت النجدة ولكن ما من مجيب ، نسيت أمر ذلك الشيء اللامع الذي نزلت لأجله إلى البئر حتى وطئتُ بقدمي عليه وأزحتها فإذا بها قلادة ما، لم أرها بوضوح لأن الظلام كان دامسا بهذا العمق ..وضعتها بحقيبتي وحاولت تسلق الجدار ولكنه كان أملسا جدا والطحالب المتكونة عليه حالت دون

استطاعتي ،كذلك كانت المياه بالبئر قليلة جدا لا تكاد تصل إلى منتصف ساقي تلمست الجدار على أن أرى مخرجا ما حتى أحسست بفجوة ضيقة قليلا ولكنها تسعني اضطررت أن أركع على ركبتي وأحشر نفسي فيها وبدأت بالزحف متوغلة فيها، ظلام كل ما حولي ظلام وأنا أشعر أن هنالك كائنات غريبة تزحف من فوقي ومن تحتي ولكن لا وقت للخوف الآن فالأكسجين بدأ ينفذ وأحسست بتثاقل في تنفسي، بمجهود كبير استطعت تجاوز تلك الأمتار زحفا حتى لاح لي بصيص ضوء خفيف جدا فرحت أزيد من سرعتي وألهث بقوة طالبة الأكسجين ، والفجوة تتسع وأخيرا صعدت على حافة واستطعت الوقوف مرة أخرى وخرجت..

كنت أقف على شيء صلب والمكان حولي أشبه بماسورة صرف صحي عملاقة تتوزع فتحاتها الكبيرة على الحائطين المتقابلين الممتدين إلى مالا نهاية....

لم استوعب الأمر ! أكان في ذلك العصر هذه الشبكة من المواسير، طبعا لا ؟ بل هل ينتهي البئر عادة بالصرف الصحي ؟ أبعدت تفكيري جانبا فكل الذي يحدث معي ليس عقلانيا أبدا حتى أقف عند هذه النقطة بالتحديد...

كانت المياه قذرة جدا وتسير في ساقية عريضة وعلى جانبيها ممران حجريان يؤديان إلى بقية المداخل تابعت مسيري وأنا أكاد أختنق من الروائح الكريهة التي تعبق من حولي ولكن مهلا!!!

ما هذا الذي أرتديه الآن ؟؟ ومتى تم الانتقال من جديد ؟لا بد وأني استدرجت إلى هنا !!!

إذن ها قد بدأت مهمة جديدة ، جيد على الأقل انتقل بين التاريخ دون مشاكل!

كنت ارتدي بدلة عسكرية مع جزمة سوداء ضخمة لم ألحظهم إلا الآن وحقيبتي ما تزال معلقة على كتفي ضحكت على حظي العاثر وأيقنت أن مهمتي هذه المرة ستكون مخيفة وصعبة، وتابعت مسيري إلى الأمام حتى لاح لي على الطرف المقابل سلم حديدي تسلقته وخرجت عبر فتحة إلى مكان ما، أو سجن!

كنت قد خرجت من فتحة الصرف من الجهة الخلفية للمبنى فسمعت من خلف الجدار أصواتاً لنساء يصرخن و يبكين مع أصوات شتائم بذيئة تخرج من نساء أخريات، مشيت بهدوء أسترق النظر من خلف المبنى حتى راقبت تلك السجانات يرتدين بزاتهن العسكرية والعلم يتطاير مع نسمات الهواء فوق المبنى المجاور ،

كان الوقت ليلا لذا لم أتبين ماهية العلم ، سرت خلف المباني أحاول إخفاء نفسي فرأيت زقاقا ضيقا دخلت فيه وجلست على الأرض مغلقة عيناي ولم أعد أشعر بشيء بعدها فقد كنت تعبة جدا...

- جيني ....جيني إيندا استيقظي يا حمقاء"

فتحت عيناي لأرى عسكرية تقف أمامي مباشرة وتسلط ضوء مصباح على وجهي.

-أوه أبعدي ذلك الضوء لقد عميتِ بصري!!"

.ووضعت يدي أمام وجهي لأحجب ضوء المصباح الشديد"

-آسفة هيا تعالي إلى الداخل فالجو بارد جدا هنا" .قالتها وسحبتني من يدي حتى تبعتها وهي مسرعة بمشيتها تثرثر دون توقف ، لم أستطع رؤية وجهها.

-ياا لهي ...كم أنت حمقاء كم مرة قلت لك ألا تغادري المعسكر بهذه الطريقة الغبية ألا تنتظرين وقت الإجازات المسموح بها لتري خطيبك أن انك تريدين منهم أن يكشفوا فرارك المعتاد وبعدها لن تعرفي ماذا ستفعل بك ايرما ...ولن أستطيع حمايتك بعدها..

حقيقة لم أعرف بماذا أجبها ومن هي ايرما تلك فاكتفيت بهز رأسي وهي تقتادني عبر الممرات ، دخلنا غرفة متوسطة الحجم بها سرير بطابقين وخزانة حديدية صغيرة ومكتب حديدي أيضا تتكدس عليه عدة أوراق ..واتجهت الفتاة بعدها مباشرة إلى الخزانة تعبث بها ....نظرت تلقائيا إلى المكتب وجلست على الكرسي أحرك بضع أوراق عليه حتى عادت حاملة كيسا ورقيا بيدها قائلة" لم تأكلي بعد صحيح؟

وقع نظري على ورقة أو خطاب كان متموضعاً أمامي على الطاولة كتب في أعلاه.

)معسكر الاعتقال النازي / رافنسبورغ(

رفعت نظري ببطئ حتى ثبتت عيني على تلك الشارة الحمراء بكتفها ....

وشهقت وقد اتسعت عيناي رعبا.

ما بك جيني إلام تنظرين" قالت لي وهي تجلس على الكرسي المقابل وتلوك قطعة خبز ...لا لا شيء أنا تعبة فقط . " وأشحت بنظري بعد أن قرأت على بدلتها اسم (ماريا مندل) وقد ذهلت حقا فهذا آخر مكان أتوقع الحضور إليه ، لا عجب أن أقابل هتلر شخصيا إذن!

بحركة واحدة أطاحت بجميع الأوراق على الأرض ووضعت الخبز والجبن على الطاولة وأكملت تأكل بنهم وشاركتها وانا اشعر بالاختناق مع كل لقمة ألوكها و أنا اختلس النظرات إليها بتوجس.

-خذي هذه قائمة عملك لهذا الأسبوع"

وغادرت بعد أن ناولتني ورقة مكتوب بها

(e b f2)

أومأت لها وأسندت رأسي على المكتب وأنا أشعر بصداع شديد.

-يا إلهي لم أتوقع يوما أن أكون حارسة في معسكر اعتقال نازي بألمانيا!!

صراخ النسوة تعالى من جديد مع أصوات إطلاق الرصاص فانتفضت وخرجت مسرعة أستطلع الأمر ، ، كانت العسكريات يحيينني بتلك الإشارة النازية الشهيرة ومنهن من قالت (يعيش هتلر) فكان لا بد لي من رد التحية ، قطعت البناء إلى البناء المقابل أحلاق الصوت بين الممرات حتى رأيت ما لم أكن أتوقعه في أبشع كوابيسي..

وقفت استند بظهري على الحائط أقاوم رغبتي في التقيؤ وأنا أرى تلك السفاحة التي أمامي تصف السجينات رتلا واحدا و شعور رأسهن محلوقة تماما ، وآثار التعذيب واضحة على تلك الأجساد الهزيلة المشوهة التي لا يسترها سوى القليل من الثياب ، كانت ممسكة بالبندقية تطلق النار بشكل عشوائي عليهن ، الأرض مغرقة بالدماء بشكل مريع والجثث مرمية على الأرض ، وكأنني أشاهد بثا حيا لفيلم رعب!!

أفرغت طلقاتها المجنونة ثم قامت بعض السجانات بحمل الجثث و كدسنها بحاويات جرارة كبيرة ليأتي دور الأخريات اللاتي يصرخن ويعرفن مصيرهن المحتوم ،أغلقت عيني وهممت بالهروب حتى حضرت تلك السفاحة باتجاهي وابتسامة غبية على ثغرها

-جيني ايندا أحرصي كالعادة أن يتم حرقهن بالكامل وصنفي أسماء البقية...

فسرحت بتلك العينين الخارجتين من الجحيم ، قرأت على بدلتها (الحارسة ايرما جريس(

إذن هذه هي إيرما التي حذرتني منها ، أومأت لها برأسي أن فهمت وذهبت باتجاه الحاوية الكبيرة، الحارسات جررن الحاوية وأنا أتبعهن وتوقفنا عند غرفة كبيرة جدا ...أو محرقة كما يسمونها وهنا بدأ الجحيم الحقيقي...

الجثث ترمى بالجملة في المحارق وتلك العاملات كأنهن آلات لا بشراً ، لا يمتلكن ذرة رحمة أو إشفاق واحدة..

سمعت صوت أنين بين الجثث المتبقية قلت لهن" مهلا هنالك فتاة على قيد الحياة ، نظرت المجندتان إلى بعضهما وأخرجتا الفتاة وقامت إحداهن بغرس سيخ مدبب على جبهتا

لتشخص تلك عيناها وتخر صريعة فورا ، قالت الحارسة: نفذ الأمر سيدي " وحيتني مبتسمة، بعدها استأنفتا عملهما في المحرقة بكل تفان ،

فخرجت من المكان مسرعة ولم أعد أحتمل الوقوف أكثر من هذا بين هؤلاء المجانين ...ركضت باتجاه المبنى الذي خرجت منه البارحة أريد الهروب ولكني لم أرى فتحة الصرف الصحي !!!بحثت مطولا ومطولا ولكن دون فائدة فعدت بعدها إلى مهجعي واندسست تحت الغطاء أرتجف ألما وحقدا وقد نسيت كليا أمر أوراق كتاب السحر التي علي إحضارها من هذا المكان وأي أوراق أو سحر ستكونان هنا بهذا الجحيم ؟ !

****

كاد علاء أن يجن جنونه عندما رأى زوجته من خلال المرآة الصغيرة بهذا المكان وأخذ يصرخ على اللعبة التي جلست بكل هدوء على الطاولة وأمامها الكتاب المفتوح.

-أيتها الحمقاء الغبية أخرجيها من هذا الجحيم إنها تتألم ...روحها لا تحتمل هذه الشناعة.

وبقيت اللعبة صامتة لا تتفوه بحرف وقد سالت دمعة من عينيها الصغيرتين.

-سحقا .....ما بك أجيبيني ..لماذا تذرفين الدموع ..قلت لك أخرجيها وأنهي هذه المهزلة الآن"

وركل الكرسي والغضب قد اخذ منه مأخذا.

-لا استطيع ....وبدأت اللعبة بالنواح حتى ركض باتجاهها وبدأ يهزها ، كيف لا تستطيعين ؟ أنتِ أقحمتها بهذا الأمر الأحمق وعليك إنهاءه.... يا إلهي لا أصدقُ أني أحدثُ مع لعبة!! "

-لا أقدر ...ليس باستطاعتي أن أخرجها حتى تكتمل أوراق الكتاب الناقصة.

-إذن...

-إذن ستبقى عالقة بين سفاحات التاريخ حتى تجمع كل الأوراق المبعثرة وبعدها ستعود بشكل تلقائي إلى الحاضر...فأنا لا املك تعويذة عودتها...هي من بين تلك الأوراق التي ستجدها ..

-يا إلهي ....

و كيف ستعرف .؟ كيف ستعود

ما هذا الذي سيحصل لها الآن " ،وخر على ركبتيه وقد تجمد الدمع في عينيه واختنقت الكلمات في حنجرته..

-أنا آسفة علاء ليس باستطاعتنا سوى أن نراها كيف ستتصرف عبر هذه المرآة الصغيرة.

****

فداء

كنت حبيسة ذلك المعسكر في رافنسبورغ ومسئولة عن نقل النساء أحياء أو أموات إلى المحارق ....توالت أيامي أستمع لصراخ النسوة والأطفال، شهدت آلامهم وعذابهم ، شهدت تلك المجازر المخيفة التي كانت تقام بحقهم يوميا وتلك التجارب العلمية اللاأخلاقية التي كانت تقام على أجسادهم.

كان المعسكر يضم السجينات السياسيات المعارضات للحكم والمرضى العقليين والأطفال والمجرمات، واليهوديات كن يشكلن النسبة الأكبر وطبعا كان يتم سجنهن من دون أي إجراء قانوني فقد أقيمت هذه المعسكرات لإبادة اليهود بالدرجة الأولى.

إن أول معسكر أقيم في أعقاب استياء هتلر على السلطة عام ١٩٣٣ وإلى العام ١٩٤٣ أنشئ حوالي ٢٢ معسكرا رئيسيا وآلاف المخيمات الصغيرة ناهيك عن الأعداد الهائلة التي تم اعتقالها في هذه السنوات القليلة ، وأشد ما آلمني أني كنت أشارك بشكل أو بأخر بعمليات الإبادة والوحشية ، كانت النسوة يعاني الجوع والمرض والذل ناهيك عن انتهاكهن بوحشية من قبل بعض الجنود ...لم أتخيل يوما أن أستلم منصباً بهذه القسوة.!!!

فعندما تحكم بالموت على أشخاص من غير عرق أو حتى من رأي سياسي مختلف فلتنفذ الحكم بطريقة عادلة وميتة رحيمة ..لا أن تستلذ بالتعذيب وسفك الدماء وانتهاك الأعراض...لا أن تقتل الأطفال بهذه الوحشية وكان الذي أمامك مجرد حشرات لا قيمة لهم ، هنا كان السجين كالحشرة إما أن يتم إعدامه وإما أن يموت بسبب الجوع أو المرض .

كنت أقرأ في الكتب التاريخية عن هذه الأنواع من الجرائم ضد الإنسانية ولكن لم أستطع تخيل ولو لجزء بسيط كيف يكون الوضع والمعاناة في الواقع...

الأسير ....حالة صعبة حقا ، عمليات إعدام عشوائية كانت تقام يوميا .... وصل العدد لأكثر من مليون ونصف المليون أسير لقوا حتفهم في معسكر الاعتقال في أوشفتز وحدها !!! وهذا رقم يضاهي عدد الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية...

كانت مهمتي الرئيسية أن أضعهم في المحارق وثم يجمع رمادهم ويرمى في النهر مع سجلاتهم ليتم التعتيم على عدد الضحايا طبعا هذا غير التجارب العلمية الوحشية والغير أخلاقية التي كانت تقام عليهم وكأنهم يعيدون أعمال الطبيب أو السفاح الياباني شيرو إيشي وما كان يفعله بالأسرى الصينيين ، فالنساء كن يحقن كالأرانب للاختبارات الطبية البشعة التي كانت تمارس من قبل الجيش الأحمر.

أما بالنسبة ل إيرما جريس ولدت في ٧ أكتوبر ١٩٢٣ هذا الاسم الذي ذاع صيته في معسكر الاعتقال بين المعتقلات أو حتى السجانات الأخريات ...كانوا يطلقون عليها عدة ألقاب منها (ملاك الموت) و (الشيطان أشقر الشعر.(

إن عمرها الآن لا يتجاوز العشرين عاما ولكنها وبأعوامها القليلة تلك ابتكرت أساليب قتل وتعذيب وأرسلت مئات الضحايا إلى مثواهم الأخير.

كنت أشهد كيف تقوم بتجويع كلابها ومن ثم تطلقهم على النسوة وهي تراقب تمزقهن تحت أنياب كلابها الشرهة وتضحك ، فلكم أن تتخيلوا كيف يتم تمزيق اللحم وكيف تتطاير الأشلاء وتنتشر الدماء وكأن الأسرى مجرد حيوانات عديمة القيمة.

شهدت كيف كانت تستلذ بتعذيب الصبية الصغار بعد أن تحلق شعر رؤوسهم وتجلدهم حتى الموت أو تخنقهم بغرف الغاز.

وكانت الفتاة التي أخذت أنا مكانها في هذا المعتقل واسمها جيني ايندا ليست بأحسن حالا وعلمت من ملفي الذي قرأته أنها ولدت في هامبورغ عام ١٩٢٢ كذلك وتنقلت بين عدة مخيمات منها شتوتهوف و رافنسبورغ. وكانت كذلك تشارك في تلك المجازر الوحشية بقلب ميت.

كنا الآن في أواخر العام ١٩٤٣ وصدر أمر من الجهات العليا بانتقال إيرما جريس إلى معسكر الاعتقال في أوشفتز وطبعا كنت فرحة إلى حد ما لأني سأتخلص منها ومن وحشيتها فاستغللت فترة تعذيبها السجينات ودخلت مكتبها أبحث بين المجلدات علي أرى تلك الأوراق اللعينة وأنتهي من هذا الكابوس ولكن دون جدوى كانت كلها مصنفات للمعتقلات وأوراق رسمية وغيرها ...لا شي

دخلت فجأة إيرما إلى الغرفة وأنا لازلت فيها...نظرت إلي باستغراب فتسمرت في مكاني وقد أحمر وجهي وتلعثمتُ بارتباك. :

-أهلا ايرما ...ك..كنت أبحث عنك.

-ألا تعلمين أني في زنزانة e ؟

- لا اعتقدت أنك انتهيت وحانت استراحتك .. هي اسمعي أود ان أهنئك بانتقالك إلى أوشفتز " وابتسمت لها وقد كنت أتصبب عرقا.

-لها ....ولكنك تعلمين أني لن أنتقل قبل أسبوع يا جيني.

تبا أحرجتني تلك الغبية مرة أخرى!...قلتها بسري و انا انظر لها وأتمنى ذبحها حتى قلت أخيرا.

-حسنا غلبتني أريد أن أتكلم معك بشيء هيا اجلسي .فمشت وخلعت عندها سترة البدلة العسكرية وجلست على الكرسي قائلة:

_كنت أعلم أنك لا تريدين تهنئتي جيني فلنكن واقعيتين، هيا هات ما عندك يا فتاة...

-صراحتك تعجبني " قلتها و أنا أفكر ما هو الأمر الذي سأخبرها به وتلكأت قليلا قبل أن أردف:

-حسنا لقد ...أ أ ..اسمعي لقد سئمت هذا المعسكر أريد الانتقال إلى أوشفتز كذلك ..أريدك أن تكلمي المسئول هنالك وتقدمي طلب نقلي، أتستطيعين.

تباً ما الذي تفوهت به !! وجزيت على أسناني لهذا الطلب الغبي الذي طلبته.

-لا مانع عندي ...عند وصولي إلى هنالك سأقدم طلبا بنقلك.

ابتسمت لي ابتسامتها الخبيثة فنهضت شاكرة جهودها حتى لمحت ذلك العقد في رقبتها وتذكرت القلادة التي وجدتها في البئر!!.

-عقدك جميل من أين حصلت عليه .؟

-هذا ليس من شأنك.

-حسنا كما تشائين ...أراك عما قريب"

وخرجت مسرعة إلى مهجعي وأخرجت الحقيبة من تحت السرير وتأملت القلادة التي رأيتها في البئر ...كانت غريبة حقا بيضاوية الشكل فضية اللون ومزخرفة حوافها وفي منتصفها بلورة جميلة قرمزية تشبه كثيرا تلك القلادة التي مع إيرما، ارتديتها وخبأتها تحت بذلتي وتناولت الكتاب المدبوغ وفتحته لأشهق بصدمة

-فارغ..!!! أين ذهبت الكلمات ؟!

جحظت عيناي وأنا اقلب تلك الورقات الصفراء للكتاب ولكنه كان فارغ ...مجرد صفحات مصفرة ليس إلا ..ازدادت حيرتي ولم أعرف ماذا افعل به حتى ولجت ماريا خبأته بسرعة تحت السرير وحييتها فجلست على الكرسي تثرثر كعادتها البغيضة.

ماريا مندل والتي كانت صديقتي بشكل أو بآخر وتحبني لسبب لم اعرفه إلى الآن ، منصبها كان رفيع المستوى فهي المسئولة عن المعسكر ،شخصيتها جادة وقوية وتتصرف كالرئيس مع الأخريات إلا معي! وتتباهى بأنها أرسلت إلى الأن ما يقارب ٣٠٠،٠٠٠ شخص إلى مثواهم الأخير. !!

بعد أسبوع بتوقيت هذا المكان العجيب غادرت إيرما جريس لتستلم منصبها الجديد كحارسة في اوشفتز وبقيت أشهد عمليات القتل في هذا المعسكر الجهنمي ولم أترك مكانا إلا بحثت فيه عن تلك الأوراق اللعينة ولكن لاشيء.

أتى ذلك الصباح البارد وكنت أقوم بجولة اعتيادية على العنابر حتى وصلت الى الزنزانة. d كانت تجلس فيها امرأة سوداء الشعر نحيلة جدا ترتدي بقايا ثوب أسود اللون وعيناها غائرتان منكمشة على نفسها في زاوية الزنزانة نظرت لها وقد خطرت لي ذكرى غريبة عن البئر .. وذكرى أغرب عن ماض جمعني بها في مكان ما لكن نسيت !!! تلاقت عينانا لوهلة فنهضت تسير بخطى ثابتة نحوي وعيناها لا تفارقانني، ووقفت ممسكة القضبان الحديدية وبصوت كالفحيح همست:

-سأقول لك من أين جلبت إيرما القلادة ولكن أريد منك أن تحرقيني بعدها.

-أي قلادةٍ يا امرأة ما هذا الجنون الذي تتفوهين به ؟

-أنتِ تعرفين جيدا عن أي قلادة أتكلم.

ذهلت من هذه الأسيرة الغريبة وطلبها الأغرب

-من أنتِ ....وما أدراك ؟

-لا شأن لك بي ...إن كنت تريدين معرفة من أين حصلت إيرما على قلادتها سأقول وبعدها ستحرقينني لأتخلص من هذا البؤس...

-أنت غريبة!!

-الغريب أني لم أمت إلى الآن ومنذ إنشاء المعتقل أليس كذلك يا جيني.

وتذكرت أخيراً لأهتف بها..

أنت من قطع الحبل أنا متأكدة...!!! ولكن كيف انتقلت معي إلى هنا!!أنا لا أفهم.

وفجأة مدت يدها نحوي وسحبتني بقوة حتى ارتطمت بالقضبان وانتشلت القلادة من رقبتي.

-أيتها المجنونة أعيديها إلي حالا وإلا ستندمين.

-جلست القرفصاء واضعة القلادة على الأرض وأخرجت من تحت ملابسها صفحة ما وبدأت تقرأ...

كانت كلمات غريبة بلغة غير مفهومة تخرج من بين شفتيها المجعدتين ، ناديت السجانة لتعطيني المفاتيح وهرولت بعدها انظر ذاهلة لما تقوم به.

نظرت لي وتمتمت باقي الكلمات بقوة وعنف فتوهجت البلورة القرمزية بداخل القلادة وابتسمت المرأة ابتسامة قبيحة شيطانية ثم نهضت و البستني إياها من جديد.

-ما هذه الورقة ؟من أين حصلت عليها ،وما الذي جرى للقلادة ؟

فنظرت الى القلادة المعلقة على صدري وصرخت بي

-الكتاب ..... أحضريه إلى هنا.

-ماذا ؟

-أحضري الكتاب المدبوغ الموجود تحت السرير حالا فماريا في طريقها إلى غرفتك وقد رأتك وأنت تخبئينه.

يا إلهي!! ...وقفت متسمرة في مكاني قبل أن أركض كالمجانين إلى المبنى المقابل أدخل إلى غرفتي ، كانت ماريا منحنية أمام السرير عندما فاجأتها بقدومي ووقفت خلفها ألهث

فارتبكت قليلا وقالت :

-جيني أهلا كنت أبحث عن ورقة ما اعتقد أني نسيتها عندك أرأيتها ؟

-لا ، لم أر شيئا

لم أضف كلمة أخرى ولا هي

تركتني مغادرة الغرفة فأسرعت إلى الحقيبة حملتها مخرجة محتوياتها وخبأتهم في جيب بذلتي وحملت الكتاب عائدة الى المرأة الغريبة.

****

جلست المرأة على الأرض مجدداً بعد أن تناولت الكتاب من يدي ووضعت الورقة التي كانت معها بصفحة من صفحات الكتاب قبل أن يضيء الكتاب بقوة فتطير المرأة وترتطم بالحائط المقابل فأخذت بالصراخ كالمجانين....

-أحرقيني ....أحرقيني الآن....

وقفت ذاهلة أحاول عبثاً تهدئتها قبل أن طلتم الحارسات على صوتها

ما الذي أصابك أجننتِ ؟؟ اخرسي

لكنها ما زالت تصرخ وتصرخ و تصرخ بجنون حتى هجمتُ عليها وبدأت أضرب رأسها بكعب المسدس الذي أحمله وتناثرت الدماء على الحائط فهمدت حركتها أخيرًا، فتشتُ ألبستها فلم أرى شيئاً آخر، أخذت الكتاب وخبأته عندما حضرت السجانات مسرعات إلى مكاننا.

-احملوها معي هيا ...قلتها آمرةً

حملناها وتوجهنا الى المحرقة و ألقيتها في المحرقة اللعينة...وقبل أن أغلق عليها فتحت عيناها

ونظرت إلي نظراتٍ أثارت الهلع بداخلي!!...

ارتعشت يداي و تصببت عرقاً وأخذت ارتجف من فعلتي القبيحة وأنا أبسمل وأحوقل ولكن لم أعرف ما الذي أصابني فجأة وكيف نظرت إلي بهذا الشكل هل كنتُ أهذي.!!

****

كانت اللعبة الآن تبكي وقد اكتساها الرعب فنظر علاء غير فاهم لما يجري ...

_ما بك ؟ ومن هذه المرأة ؟

حدقت فيه ونزلت من على الطاولة واختبأت تحت السلم ضمت ساقيها وبدأت ترتجف...

حتى نهض ومشى باتجاهها وركع على ركبتيه وتلمس خدها الصغير"

لا تخافي اتفقنا ،هيا اخرجي يا صغيرتي واخبريني ما الأمر ومد يده إليها

تأملت وجهه قبل أن تمسح دموعها وتمسك إصبعه بيدها وتخرج..حملها ووضعها على الطاولة وابتسم قائلا :

-حسناً هل لي أن أعرف الآن ما الذي يجري ؟

أومأت برأسها الصغير وقالت له :إنها زوجة أبي.

تلك السجينة كانت زوجة أبي يا علاء مع ان شكلها قد تغير قليلا"

-يا إله السماوات.. لذلك فداء لم تعرفها.ولكن ما الذي ذهب بها إلى هناك ...وماذا تريد من فداء ؟وكيف طلبت أن تحرقها؟؟

-لا أعرف ،كل الذي أتذكره أنها بعثرت الصفحات وغادرت مع عشيقها وتركتني حبيسة الصندوق...

-يا الهي ...فداء في خطر.

-لا اعتقد ذلك ...يبدو أنها تحتاج فداء لسبب لا أعرفه.

-ولكنها احترقت؟

-لننتظر ونرى.

****

فداء...

كنت أمشي بين الممرات حتى قابلتني ماريا وقالت بحزن ستنتقلين مبارك لك، مع أني حزينة لفراقك ..وسلمتني ورقة ما نظرت لها وتناولت الورقة اقرأها ...وكانت قراراً بانتقالي الى أوشفترز ولكن التاريخ!..

أوه إنه ١٩٤٥.

-نعم وما الأمر في أن نكون في عام ١٩٤٥ قالت هذا ونظرت لي باستغراب!

-لا شيء ..لا شيء غريب أبدا

ضحكت بسذاجة ولم أفهم ما الذي جرى وكيف قفزت سنتين هكذا. فقبل ان أقابل تلك المرأة السجينة من ساعتين كنا في ١٩٤٣!!

ذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب فاتحة الكتاب وقد كانت هنالك جملة واحدة مكتوبة بالدم وباقي الصفحات لا تزال فارغة .

خسر هتلر الحرب ، وانطفأت شعلته وسنبدأ بتصفيتكم أيها النازيين..

ماذا! أيقرأ المستقبل؟

اتسعت عيناي رعبا وأغلقت الكتاب و جلست على ركبتي حتى هدأت قليلاً وعدت إلى

عملي،

في الليل كنت جالسة أرتب أغراضي للانتقال صباحا فلمحت الكتاب من جديد وفتحته.

كان مليئاً بصور نساء مشنوقات ....كل صفحاته نساء مشنوقات إلا صفحة وحيدة مرسوم عليها قلادتين كالتي ارتديها ....توهجت عندما اقتربت من الكتاب ..فخلعتها ووضعتها على الصورة بشكل تلقائي و طابقتها تماماً ...فالتحمت في الصفحة.

التحمت وأصبحت مجرد لوحة مرسومة بألوان براقة ففهمت المقصد ...بقي علي إحضار الأخرى من إيرما لأطابقها ولو اضطررت إلى قتلها ولنرى ماذا سيحدث. بعد ذلك

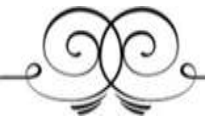

الفصل السابع

(الساحرة الملعونة)

كنت سعيدة لأن الحظ حالفني هذه المرة وسأنتقل إلى شفترز بعد بضعة ساعاتٍ فقط..

ودعتني ماريا بحرارة قبل ان أستقل السيارة متجهةً إلى المعسكر ، ووصلت أخيرًا فاستقبلتني إيرما بما أنها الوحيدة التي تعرفني من هنالك اقتادتني عبر العنابر إلى مهجعي وتفاجأت بأنها ارتقت بمنصبها وأصبحت رئيسة الحراس هنا ...يبدو أن وحشيتها ازدادت لترقيتها بهذا الشكل السريع. !

ومساءاً عندما كنا نتناول طعام العشاء ، تعرفت على المسئولين أو الوحوش الآدمية في هذا المعسكر الضخم لكن ما أثار انتباهي هو ذلك الرجل الوسيم الذي لا يتعدى عمره الأربع والثلاثون عاماً ، دائم الابتسام وإطلاق النكات ، كان يعتمر قبعة قوات الصاعقة مرسوم عليها جمجمة وتعني أن هذا الشخص مصرحٌ له بالقتل كيفما يشاء ودون محاسبة ، تقدم نحوي وحياني قائلاً :

د .يوسف منجيا القائد الأعلى للمخيم ، سررت بالتعرف عليك جيني إيندا"

بادلته الابتسام ولم أعرف أبداً ما وراء هذه الابتسامة الدائمة. !

******

و الوضع هنا ليس بأحسن حال بالنسبة لي من فرانسبورغ فالقتل والإبادة واحدة ...ولكني كنت أتحين الفرصة المناسبة لأحصل على القلادة الثانية، كان عملي هنا مختلف قليلاً ...فقد استلمت غرفة الغاز لأخنق بها المساجين والأسرى ، يا لهُ من أمرٍ ممتع !!

كنت أجمعهم في هذه الغرفة وانتظرهم ليختنقوا وببساطة يتم التخلص من جثثهم كما السابق.

صباح أحد الأيام ، دخلت مجموعة جديدة من المساجين ، وقف القائد يوسف منجيا وبعض الضباط بالإضافة لي ولإيرما جريس وكأنها لجنة استقبال !! أو موت .كان يوسف ينظر تجاههم بابتسامة طفلٍ وديعة تحتل ثغره ثم تقدم وصار يشير لبعضهم للانتقال للجهة اليمنى وبعضهم للجهة اليسر ، حتى انتهى من فرزهم ولم أعرف وحشية هذا الفرز إلا بعد مدة وجيزة!

أصحاب اليمين اقتادهم الضابط المسئول لأعمال السخرة ليبدؤوا مسيرتهم الشاقة في الأعمال .

أما أولئك المساكين شاحب الوجوه وأغلبهم هزيل البنية فتقدم منهم يوسف بابتسامته المعهودة وقال :

-سأصلي لأرواحكم أعزائي"

وبهذا اختتم مسرحيته الهزلية عندما أعطى الأمر لحراسه ليتوزع أولئك المساجين على غرف الغاز والإبادة ليلقوا مصرعهم فوراً.

كان يعشق غرف الغاز ويستخدمها كثيراً ، ويستعل أسرى المعسكرة لإقامة تجاربه في علم الوراثة والجينات ، يفضل الأطفال التوائم كان يقدم إليهم ألواح الشوكولاه ويلاطفهم قبل أن يفصلهم عن بعضهم ويقوم بحقنهم بالكلوروفورم وتشريحهم ، لم تتوقف وحشيته عند هذا الحد بل كان يحاول تغيير لون العينين فيقوم بحقن أعين الأسرى بمواد كيمائية !! وفشله مرات عديدة لم تجعله يتوانى عن تجاربه بل على العكس ازدادت جموحاً وجنوناً بتجاربه الغير أخلاقية ، فكان يقوم ببتر الأعضاء ، وإقامة عمليات وتجارب لا أساس لها في الطب وكان

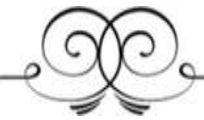

يهدف في أغلب تجاربه إثبات أن الجنس الآري هو أنقى من الأعراق الأخرى في التركيب التشريحي .

******

وبالمقابل كانت إبرما تمارس هوايتها المفضلة في الساحة الخارجية والأسرى مقيدين بعد أن أنهكهم التعذيب لتنفيذ حكم الإعدام المنتظر، اقتربت وصفتهن رتلاً واحداً وأمسكت سلاحها وبدأت تتسلى فيهن واحدةً واحدة....

حتى لمحتها ....كانت نحيلة جداً منكسةً رأسها وشعرها الأسود يتطاير بفعل الرياح ،أيعقل أنها هي؟؟صدمت كثيراً وجريت نحو إرما لأتأكد.!

-اسمعي اتركي لي تلك المرأة ...أريد أن أتسلى كذلك فقد شعرت بالملل"

ابتسمت لي وقالت: خذيها وخذي ما شئتِ منهن ..

-لا شكرا واحدة تكفيني عزيزتي"

أطلقت لها ضحكة وحشية لمجاراتها و ذهبت باتجاه المرأة وشددتها من شعرها إلى زاوية من زوايا المبنى ورفعت رأسها بطرف المسدس بعد أن أيقنت أنها هي... !!

اللعنة!!

-ضربتكِ بالمسدس ولم تموتي..

أحرقتك ولم تموتي .....بالله عليكِ أجيبيني من أنت ؟؟وكيف تظهرين أمامي هكذا !!أريد تفسيراً الآن يا هذه وإلا..

رفعت رأسها وبضحكةٍ منهكة أجابتني ...وإلا ماذا يا فداء ؟أنتِ قلتِ أني لم أمت....

وأردفت بصوت مخيف : ولن أموت أيتها الفانية....

ونظرت لي نظرة شيطانية من أعماق الجحيم.

ارتعدت أوصالي وأنا أتطلع بهاتين العينين اللتين تراقصتا كنيران جهنم فأجبتها بحق:

-ولكنك تتألمين"

ركلتها حتى هوت على الأرض وارتطم رأسها بحافة الحائط وبدأت تنزف، شددت شعرها وقد عاد لي ذلك الشعور الغريب الذي انتابني عندما قتلتها أول مرة ..هوساً مريعاً تملكني وبدأت أضرب رأسها على الحائط مراراً ومراراً فداعبت روحي نشوةً عامرةً غريبة ! حتى تنافرت الدماء وسط صراخها،وكأني صرت أستلذ مؤخراً بأصوات الصراخ.

نظرت إلي أخيراً وخرجت الكلمات متقطعة من فاه:

-أ ..أحضري ..قلادة إيرما ..

أغمضت عيناها ولم تتحرك بعدها هززتها وضربتها وأنا أصرخ.

أيتها الغبية استيقظي أنا أعرف أنك لم تموتي.

هززتها وضربتها مجدداً ولكن دون جدوى تعالت ضحكة من خلفي فاستدرت لأرى يوسف منجيل يقف على بعد أمتارٍ قليلة ، تقدم نحوي ثم ربت على كتفي مبديا إعجابه :

-وائو !!! بدأت تتعلمين بسرعة أيتها الجميلة ، لكن بفعلتك هذه تلوثين الأرضية عزيزتي ، أفرغي طاقاتك خارج حدود المبنى رجاءاً"

وقهقه عالياً وهو يدخن سيجاره ثم أرسل لي قبلةً بالهواء وغادر...

بصقت ناحيته بعدما غادر وأنا ألعن هذا الملاك الجهنمي..! فعلاً يبدو فاتناً هذا الوغد!

تطلعتُ مرةً أخيرة ناحية هذا الجسد الملقى على الأرض، ثم تركتها مغادرة...وقد كنت

منهكة ويائسة بحق لا الأوراق استطعت إيجادها هنا وهذه الحمقاء كلما ظننت أنها ماتت تعاود الظهور من جديد.

مشيت إلى المبنى المجاور وجلست على حافة الحائط أضع الخطط لكي آخذ قلادة إيرما ..طبعا استبعدت القتل فلن أغير مجرى التاريخ مهما حاولت ،أخدرها ؟ ولكن من أين سأحصل على مخدرٍ هنا... إلا إذا تسللتُ لعيادة ذلك الوغد يوسف.

يا الهي ما العمل.

-بما تسرحين الآن ؟ قالت لي إيرما .وقد اتكأت على الحائط بجانبي.

..-لاشيء.

-اذاً فالتدخلي الجو بارد هنا"

دخلنا وقد استأذنت مني بالانصراف لأنها تريد الاستحمام لتزيح هذه القذارة على حد قولها....

شيطانة نظيفة " قلتها اضحك و أنا استلقي على السرير،.ولكن مهلاً ....استحمام ....نظافة ..قلادة!!

وبرقت عيناي بانتصار، ركضت مسرعةً إلى غرفتها وفتشتها ملياً ولكن يبدو أنها لم تخلعها.تناولت عصاً وأسرعت إلى الحمام ووقفت خلف الباب قبل أن افتحه بسرعة وأنا أهوي بالعصا على رأسها فوقعت من فورها ، انتشلت القلادة وعدت الى غرفتي راكضة أغلقت الباب وكنت على وشك وضع القلادة في الكتاب، حتى سمعت ضوضاء وجلبة عالية ...ظننت لوهلة انهم اكتشفوا أمر إيرما، ارتديت القلادة وخبأت الكتاب مجدداً

لأستطلع الأمر ...ازداد الصوت واختلطت أصوات الصراخ بأصوات وقع أقدامٍ ثقيلة، وفجأة انفرج الباب ودخل مجموعة جنود..

دخل الجنود البريطانيين إلى الغرفة واقتادوني الى زنزانة حشرت فيها مع الأخرين ومن بينهم ايرما جريس التي لفت رأسها بضمادٍ طبي، ضحكت على هيئتها وجلست على الأرض....فقد صدق الكتاب حقاً وما زلتُ أتوقعُ الأسوء في رحلتي"

****

كنا الآن في أواخر ١٩٤٥ القوات البريطانية حررت عددا من المعسكرات فهرب بعض الحراس والضباط النازيين منهم يوسف منجيل فقد كان الحظ حليفه ، والبقية حوكموا ومن بين المعتقلين والمعتقلات كانت ايرما جريس التي حكم عليها بالإعدام شنقا مع ستة ضباط لم يهربوا كالبقية وكان ذلك في ١٧ إبريل ١٩٤٥...

وأنا ...أو جيني ليندا كنت حبيسة زنزانة مع عدة ضباط آخرين حتى عام ١٩٤٦ طبعا كان الوقت يمر بلمح البصر فببساطة نمت في العام ٤٥ واستيقظت في ٤٦ ولا تسألوني كيف حصل ذالك !!

اقتادوا الضباط الذين كنت سجينة معهم حتى بقيت في الزنزانة انتظر حتى أصدر حكم الإعدام.

واقترب موعد المحاكمة كنت واقفة في الزنزانة أفكر كيف لي أن أهرب من هذا المأزق حتى سحبني أحدهم من الخلف وسد فمي بيديه.

*****

(فداء)

اركل الهواء و الجسد الذي أحاطني ساداً فمي ،أحاول الصراخ حتى همس صوت كالفحيح في أذني

(اخرسي الآن أيتها الحمقاء واستديري) وتركتني فاستدرت لأفاجأ بها !!!

توسعت حدقتا عيناي وأنا أتلعثم في الحديث.

-أنتِ مجدداً

وطبعاً كانت هي نفسها تلك المرأة التي قتلتها مراراً !.

تجاهلت تلك المرأة سؤالي وسألتني :

-أنسيتِ الكتاب يا فداء ؟ ضعي القلادة وحرري نفسك.

-حسنا ولكن مهلًا....كيف تعرفين اسمي؟

قااطعتني وهي تقول: إنهم قادمون أسرعي وحررينا حالاً"

وكنت الآن أسمع صوت خطوات قادمة فأخرجتُ الكتاب بسرعة وخلعت القلادة...كانت دقات قلبي تدوي كقرع الطبول

ويداي ترتجفان.

-أسرعي

هدرَ صوتها صائحةً بلهفة واقترب صوت وقع الأقدام وأنا ما زلت أبحث عن الصفحة اللعينة التي رسم عليها القلادتين.

الصوت اقترب أكثر ....وسلسلة المفاتيح ترسل ترانيم الموت بين يدي الشرطي ،بحركة سريعة وضعت القلادة و طابقتها.. فتوهجت بقوة والتحمت كما السابقة ، المفتاح يدور في القفل. تحولت القلادة إلى رسمة في الصفحة.. ..الباب بدأ في التحرك

الضوء القرمزي الذي خرج من الكتاب أعاد جيني إيندا الحقيقية ، أما أنا فداء فكنت

أتلاشى تدريجيا مع تلك المرأة عندما اقتادوا جيني إلى حبل المشنقة لينتهي دورها في هذه الحياة وليبدأ دوري في مهمة جديدة ربما ، من يدري !!؟...

وفي ذلك الكوخ المتهالك صرخ علاء

-يا إلهي...

ما الذي جرى للمرآة ؟!

كانت اللعبة تعيد قراءة التعويذة مراراً ولكن لم يحدث شيء ، أصبحت المرآة سوداء حالكة عندما اختفت زوجته مع تلك الساحرة.

،ارتعش جسده خوفا على فداء وبدأ يتحرك بسرعة في أرجاء الغرفة ينظر إلى المرآة واللعبة تقرأ التعويذة ولكن دون فائدة.

جلس على الأرض أشعل سيجاره وبدأ ينفخ الدخان بعصبية .واللعبة تعالى صوتها وارتجف تترنم بتلك الكلمات حتى انفجرت المرآة وتناثر الزجاج محدثا صوتا مهولاً وقطعت الكهرباء فجأة ، اشتعلت المدفئة من تلقاء نفسها وهبت ريح قوية جدا أدت إلى تناثر اللهب وبدأت النيران تلتهم الأثاث فتحرك علاء حاملا اللعبة ليخرج من المنزل.

-الكتاب! أحتاجه.

صرخت اللعبة وهي بين يدي علاء فأخرجها إلى الحديقة واقتحم النيران داخلا إلى المنزل ليجلب الكتاب.. كان الدخان كثيفا مخيفا وصوت طقطقة الخشب المحترق تختلط بأصوات الريح العاتية التي دخلت المنزل وزادته اشتعالاً فوق اشتعاله ،

انتشل الكتاب فبدأت قطع الخشب المحترق تهوي وترتطم بالأرض محدثتا دويا مهولا.

بدأت النيران تحاصره فسقط على الأرض يسعل ويحاول استنشاق الهواء.. واللعبة تصرخ من

الخارج والمنزل على وشك الانهيار.

-أرجوك انهض علاء...لأجل فداء ولأجلي.

سمع صراخها وبكائها وتذكر معاناتها وحاجتها للكتاب.

فاستجمع قواه ونهض..

كان يسير بتثاقل ويترنح من فرط الانفعال حتى تبين له الباب ..قفز عبر النيران بكل قوته وخرج.

كانت النيران تلتهم ألبسته فتدحرج على التراب ليطفئها

حتى همدت حركته ...واللعبة تسير خائفة وتهدج صوتها..

- علاء لا تمت أرجوك.

تلمست جبهته فسقطت عبرة ساخنة من مقلتيها على خده ، فتح عينيه ببطئ وابتسم لها

مخرجا الكتاب من تحت سترته ، ضحكت ووضعت رأسها على صدره.

أحبك علاء...أنت تذكرني بوالدي..، لا تتركني وحيدة أرجوك"

تلمس وجهها بلطف ثم وقف حاملاً إياها وصعد السيارة.

-إلى أين سنذهب؟

-إلى منزلي يا رأس اللعبة ...فلم يعد لنا مكان هنا"

-فداء.. أريد أن أعرف أين أخذتها تلك الساحرة.

شرد بعيدا وهو يقود سيارته...

متأكدٌ بأنها ستعود....

متأكد

(فداء)

أنا فداء ...الصحفية ، العنيدة ،الهجومية ، ذات اللسان اللاذع ، أين أنا بالتحديد لا أعرف ، بأي زمان أيضا لا أعرف ، كل الذي أعرفه أني وقعت على أرض متماوجة حمراء بنية، تنبثق من بين فوهات امتدت إلى مالا نهاية حمم بركانية تشتعل وتخبو بالتناوب ،السماء تتلبد بغيوم برتقالية ورمادية غريبة جدا وكأني بإحدى الكوابيس...

نباتات هذه الأرض شوكيه تقطر الدماء من مساماتها لتتجمع في سواق تسير لتصب في نهر عظيم جوانبه محاطة بصخور كالفحم لشدة اسودادها.

وشجيراتها زرقاء نيلية عارية الأغصان ...كان مشهدا غريبا بحق!!

تلفت حولي مذعورة ومشيت أحاول تفادي النيران المنبثقة من فوهات الأرض.

صرخت وصرخت ولكن لم يكن لصوتي وجود..

كنت لا أزال محتفظة بتلك الأوراق التي وعدت اللعبة أن أجمعها.. لم أعرف اكتملت أم لا...

انتهى دوري ونجحت أم لا ؟وأين تلك المرأة الغريبة التي كانت معي .

وما هذه الأرض ..؟وما هذا المكان وبأي زمان ؟

مئات الأسئلة تتقافز إلى ذهني حتى لاح لي من بعيد قصر أسود مهيب شيطاني الهيئة ،

فتعلقت في أمل وبدأت اركض نحوه،

ركضت وسقطت على الأرض الساخنة و عاودت النهوض من جديد ولكنه ابتعد.

أحاول التقدم فيبتعد أكثر ، بكيت وجلست على الأرض

فتردد صوت كالفحيح في رأسي...

بائسة ...

يائسة ....

فاشلة ....

قاتلة ....

قاتلة....

صرخت ملئ حنجرتي (كفى)....وسددت أذني بيدي خطر لي أن أخرج سم الزرنيخ لأشربه وانتهي من هذا العذاب الذي أنا فيه.

كانت الزجاجة البنية الصغيرة بين يدي...

تساقطت دمعاتي وأنا ألامس السائل على شفتي.

والصوت يضحك....

فتذكرت اللعبة..

حاجتها إلي..

وعهدي لها.

رأيت علاء بين غيوم السماء البرتقالية الرمادية يبتسم مطمئناً ....تعلقت بعينيه الدافئتين لكن

الصوت عاد من جديد يقول :

فاشلة

قاتلة...

فانية..

صرخت وهببت واقفة ، كسرت الزجاجة فتبخر السائل من حرارة الأرض وقتل تلك النبتة

الشوكية وسالت الدماء على الأرض.

لن استسلم أبداً .

-من هناك ؟

صرخت فخرج صوتي هذه المرة وملئ المكان ...

يا من تتلاعبين بعقلي اخرجي وواجهيني"

صرخت وتردد صوتي مرات ومرات حتى بدأ صوت ضحكات ماجنة تدوي في الأرجاء و القصر بدأ يطير من جديد ولكن باتجاهي هذه المرة حتى هبط أمامي فهبت ريح شديدة السخونة.

عبرت من بوابته تلك الشيطانة الخبيثة بشعرها الأسود الطويل وتبسمت لي...

قالت :أهلا بك في عالمي أيتها الفانية..

فقلت لها بشجاعة:

-عرفت أنك لست من البشر ، من أنت وماذا تريدين...

قالت وهي تقترب مني

-شكرا لمساعدتي ....فلولاكِ لكنت حبيسة التاريخ ما بقي من الزمن..

-لم تجاوبيني على سؤالي...من أنت ؟

تبسمت تلك المرأة وبدأت تتقدم مني قائلة بتفاخر :

أنا نفسكم، أطماعكم ، غدركم وخيانتكم.

-كفي عن الهراء.

-أنا حقدكم... أنا نفسكم الضعيفة أيها البشر.

-كفى كذبا يا امرأة

قلتها فوجدت نفسي فجأة داخل مكان ما

كنت أطير في العدم ...كل شيء حولي سواد حالك.

الأرض والسماء.. ووقفت بمواجهتي تلك اللعينة.

-ماذا تريدين مني..

أنظري " .قالت لي ، حتى رأيت ذلك ،

كانت هنالك شعلة جهنمية صغيرة بدأت تكبر من نقاط حمراء كالجمر تأتي من العدم لتلتصق بها.

مع كل نقطة كانت تزداد حجما ووزنا حتى تكونت هيئتها.

قبيحة شيطانية مخيفة قرونها تلتف لتملئ المكان عيونها عمياء تقطر الدماء منهما ومخالبها مقوسة سوداء وفروها نار لاهبة .

قلت ما هذه؟ فأجابتني :قلوبكم"

-كاذبة . ...

تجلجلت ضحكتها عالياً وأجابت باستهزاء :برأيك إذن أنا من أكون.

-شيطانة ... ماردة من مردة إبليس اللعين.

أخذت نفسا عميقا قبل أن تقول:

منذ وقت طويل لم يكن لي وجود...

ومع أول خطيئة اقترفتموها بدأت بالتشكل في قلوبكم.

-الإنسان ليس معصوما عن الخطأ.

-تعتقدون أن أخطائكم صغيرة وتبررونها لأنفسكم ولكنها تدريجيا تكبر وتكبر حتى يتكون ذلك الحقد الذي يعمي أبصاركم والطمع الذي يجعلكم تقترفون أشنع الجرائم فتصبحون

كالنار ....تحرق من حولها ولا تخمد.

بعد أن كونتموني أيها البشر ...قررت أن أغادر مكاني من قلوب البشر ، فكثرة الأخطاء قد استحالت جحيما، دخلت عالمكم البشري لأتشكركم...ولكن على طريقتي، صرت حرة أجوب هذه الأرض ، بهيئة جديدة ، صار لي كيان مستقل ، أنتقل من مكان إلى آخر أرى بعيونكم واسكن قلوبكم متى أشاء.

فهذا الذي سرق ...والآخر قتل ..والثالث سلب ونهب باسم السلطة والرابع خائن ، ومن ظلم أهله ، من وأد طفله ،من ومن و من.....

وبدأت الحروب وكثرت الأطماع وازدادت وحشيتكم..

ووحشيتي كذلك ،وفجرت قوتي امرأة ساحرة حقودة تزوجت رجلا لديه فتاة صغيرة ومرت الأيام فخانت زوجها وسرقته ونهبت من أمواله وحولت حياته لجحيم ...وعندما لم يعد يحتمل وواجهها زوجها ...استلت سكينا وقطعته، تلذذت في ذبحه بقلب ميت.

خرجت كل شرور الدنيا في قلبها ...وأنا كنت أمدها

بالقوة التي تحتاج وكانت تمدني بالقوة التي كانت تنقصني لأكون عالمي الخاص هذا...

أخرجت المرأة قلبه وبدأت تأكله باستمتاع وسمعت أنين الفتاة الصغيرة.. صعدت إليها وقد ملئ الشر ذلك القلب الحقود وبدأت تطعنها مع كل طعنة كنت انمو بقلبها ..وتتعاظم قوتي أكثر فأكثر....

-صرخت بالمرأة كفى

أرجوكِ..توقفي وسددت أذناي ..فلم اعد احتمل المزيد.

الفصل الثامن والأخير

كفى....

صرخت وقد تذكرت تلك اللعبة البائسة وماذا فعلت بها زوجة أبيها.

-هذه أنت!!!!

انهرت على الأرض أبكي فقالت من جديد : وقدرك هو من ساقك إلي " واستطردت..

-ولم تكتف تلك المجنونة بذالك بل مارست السحر الأسود، لكي تعذب تلك الصغيرة إلى الأبد فخبأت قليلا من دمها في قارورة احتفظت بها بعد أأن حبست روحها في جسد اللعبة وبعثرت عشرات الوريقات عبر التاريخ...واحتفظت بورقة واحد لها لتستفيد منها بشيء لنفسها ، ولم تكن الفتاة فقط ضحيتها بل انا كذلك.

-لم أفهم ....ما دخلك أنت.!!

عندما غادرت الساحرة مع ذلك الشاب الذي أحبها.. وخانت زوجها معه ، غدرت به كذلك واقتادته الى كهف قديم جدا تقام به طقوس السحر والشعوذة، وذبحته بوحشية، سلخت جلده وقطعت رأسه وأغرقته بدماء الطفلة لتقدمه قربانا لتمثال الشيطان لتكمل الطقوس وتحصل على الخلود والقوة والعظمة.

ولكن كما يقولون قلب السحر على الساحر...و أخطأت بعمل التعويذة...فمسخت روحها وحبست في جمجمة ذلك الشاب وبذلك انتهى دورها.

أما أنا فسجنت في هذا الجسد وكتبت علي لعنة لأتنقل عبر الأزمان أموت عند قاتلة لاحيا من جديد بمكان آخر واشهد وحشية امرأة أخرى كحالك تماما عندما صرت تتنقلين بين

الأزمان ،

رجعت مئات السنين ...وقتلت آلاف المرات وشهدت أشنع المجازر.

-كم هذا فظيع....كيف تحملتِ هذه المعاناة؟

سألتها بصدق هذه المرة، فرغم الشر الذي بداخلها أو الذي هي متكونة منه ،ذاقت العذاب كما ذقته أنا ولربما أكثر مني

قالت لي انهضي ، سارت وتبعتها في الغرفة السوداء حتى لاح لنا باب عملاق أرجواني اللون مزخرف بشياطين ، عبرناه لندخل غرفة تحوي ملايين الصور لنساء قبيحات القلب والقالب رأيت من بينهن فازيكاس والخالة سوزي..

اليزابيث باثوري ووصيفتها السوداوية و كاتا.

ماريا ريندل وجيني ايندا و الشيطانة ايرما جريس وغيرهن من المجرمات..اللاتي خلد اسمهن التاريخ.

قالت لي: أنت مررت بأبسط التجارب مع قليل جدا منهن ...أما أنا فحبست بقلب كل امرأة وتعذبت و شهدت الوحشية والألم الذي مارسنه...

كنت ضحية بعضهم فأحرقوني وأنا حية ،أُعدمت، أُغرقت في البحر ،سفك دمي عشرات المرات وتألمت..

كنت أريد أن أجمع الأوراق لأعود إلى عالمي فقد اكتفيت حقا"

حركت يديها وتمتمت بضع كلمات وأنا أنظر عاجزة عن النطق وقد تقدمت صورة لامرأة ما

-انظري فداء هذه السيدة الجميلة مثلا اسمها..

كاثرين نايت : تعتبر جرائمها من الأكثر وحشية، إذ إنها قامت بقتل عشيقين لها وسلخ جلد

واحدٍ منهما ووضعته كزينة في منزلها. وبسبب وحشيتها، حكم عليها بالسجن المؤبد لتكون أول أسترالية تمضي حياتها في السجن من دون أن يعفو القضاء عنها.

وصارت فجأة الصورة تتحرك ، ليتشكل لي ما فعلته تلك المرأة ، رأيت كيف سلخته وكيف علقته، رأيت كيف طعنت الآخر ، أغلقت عيناي رعبا وقرفا لكنها

بحركة واحدة أزاحت الصورة لتنتقل إلى صورة أخرى

وقالت : اما هذه فاسمها بيلي جونيس أمريكة ولدت عام ١٨٥٩ واعتُبرت من أخطر السفاحين في تاريخ البشرية، إذ إنها قامت بقتل زوجيها وطفلتيها بالإضافة إلى أكثر من ٢٠ شخصاً من أجل التغلب على الفقر وجمع الأموال من بوليصة التأمين على حياة عائلتها، أو حتى الحصول على عقارات الغرباء..

وكالعادة رأيت كل شيء بطريقة متسارعة ثم

ألأقت الصورة بعيدا واستحضرت واحدة أخرى مكملة ملحمتها التاريخية!!!!

كاترين تزوجت ببيتر الثَّالِث واكتشفت انَّه عقيم فاتخذت مِن أحد حراسها طريق للإنجاب فحملت مِنه واتَمّرت صبي وحملت مِن حارسها الآخر بصبي ثانيٍّ

وثار شك الإمبراطور وواجهها بأنهم ليسوا أبناءه وبضبط نفس شديد وهدوء امتصت غضبهُ واعدة إياه بشرح كُلّ شيء و بَعْد العشاء أمرت الحراس والخدم بمغادرة القصر ووضعت ساق عَلَى أهرى وهِي ترى بيتر يتلَوى نازفا مِن أنَّفه وفمه حتَى الموت وكَانَّ أنينه يرافق ضَحِكاتها الرنانَّة حتَى أزهقت روحه ، وفِي الصباح أمرت احد حراسها بدفنه وعَندما انَّتهى قتلته وأمرت آخِر بدفن الحارس ثَمّ قتلت الآخر وأصابتها الهَسِتيريا حتَى قتلت مائه حارس آخِر إلَى أنَّ هدئت أخيرا!!

توسعت حدقتاي رعبا وأنا أرى ما فعلته هاته المجنونة كشريط فيديو ،كانت الأشد والأعنف والأخطر ترنحت من فرط الإنهاك لكنها لم ترحمني بل صرخت بي بقوة

أتريدين المزيد؟؟؟ جلبت صورة أخرى لامرأةٍ جميلة وقالت:

حصلت فِي محاكَمتها عَلَى حكَم مخفف فقَد أنقذها محاميها مِن حبل المشنقة لَكِنّه رماها فِي حياة

كئيبة مملة ، فسِتمكث فِي السجن ما تبقى مِن عمرها مضاعف أربَع مرات ، وكَانَّ هذا حكَمها"

السجن مدى الحياة لأربَع مرات متتالية " هَذِه الصبية الجَمِيلة والَّتِي اشتهرت بلقب" ملاك الموت " ، ممرضة مرحة وشابة صَغِيرة تبدو مهنتها بألف خير والحياة كُلّها تبتسم لَها، وأهم ميزة فِيها أنها " عديمة الصبر " فكَانَّت تجن مِن انَّين مرضاها لذا لا تتعجبي إن غرزت حقنة فِي يد احدهم لقتلَه وليس لتسكين ألمه ، وهكَذَا ما قد كَانَّ فقَد كَانَّت تتَخْلَص مِن مرضاها الذين يتُسَبِّبون لَها بقلة الراحة والنوم بانَّ تحقنهم بمادة مخدرة تودي إلَى توقف نبضات قلَوبهم ومفارقتهم للحياة فورا..

اشتهر عَنبرها بكثرة المتوفِين فِيه وكَانَّ هذا موضوع المزاح بينها وبين زميلاتها وهن لا يدرين أنها كَانَّت تتسبب فِي وفاتهم فعلا ،فِي إحدى الليالي الَّتِي تشرف فِيها عَلَى أحد العَنابر تلقت اتصال مِن " حبيبها

الذي اخبرها انَّه لا يستطيع ملاقاتها بَعْد انَّتهاء نوبتها"ولكنه متفرغ الآن. فما كَانَّ مِنها إلا أن غرزت إبرة سامة فِي ذراع المريض حتَى تلحق عَلَى حبيبها الذي كَانَّ يعَمِل رجل أمِن فِي نفس

المِستشفِى والذي قتلت فِي بداية مَعرفتها به ثَلاثة مرضى

ليكون لَها عذر فِي اِستدعاءه لنقل الميت إلى الثلاجة!!

..عشرات بل مئات النساء سجلهن التاريخ أو لم يسجلهن كن مجرمات سفاحات وما خفي كان أعظم..

كنت أتنقل بينهن وأشهد جرائمهن.. كالمجنونتان ريا وسكينة القاتلتان المصريتان الشهيرتان اللتان كانتا تستدرجان النساء الثريات لسرقتهن وقتلهن ، والسيدة جينجولي صانعة الصابون الطيبة التي كانت أمام الناس تعتاش من خلال بيعها الصابون ، ولكن ما لا يعرفه الناس أنها كانت تستدرج النساء الثريات وتذبحهن في حمام منزلها بسرعة فائقة ودون أن يشعر بها أبنائها المقيمين بنفس المكان !!! ثم تقوم بتقطيعهن إربا وتذوبهن مع الصابون الذي تبيعه خارجا ، وتقول ضاحكة لزبائنها : مكوناته طبيعية مائة في المائة ! وكنت أنا من بين ضحاياها فتخيلي مدى العذاب الذي ذقته!!

صرت عن طريق السحر أجمع الأوراق كيلا أفقدهم في القلادتين ،حتى رأيتك في مملكة اليزابيث باثوري وعرفت أن اللعبة قد أرسلتكِ وأنك تساعدينها في جمع الأوراق لتنال راحتها، كنت لن تجدي بقية الأوراق لأنها معي و وأنا كذلك لن أستطيع العودة مادامت ورقة واحدة معك فاستدرجتك إلى البئر عن طريق تعويذة عبر الكتاب و ألقيت قلادة منهن وقطعت الحبل...فتم الانتقال لي و لك...

في رافنسبورغ سرقت قلادتي الأخرى ايرما جريس قبل أن ترميني في المحرقة.. فعلقت في المعتقل كذلك أموت بطريقة لأحيا من جديد بزنزانة أخرى و اموت بطريقة مختلفة .... فلم يتبقى لي أمل العودة إلا عن طريقك يا فداء..

تنهدت بعدها تعبة من كثرة الحقائق التي انهالت على رأسي دفعة واحدة ، فقلت لها راجية:

-وها أنذا أعدتك إلى عالمك ، والآن أرجوكِ بقي أن أعود لنقذ اللعبة المسكينة فهي تحتاجني .

وهنا تعالى صوت ضحكاتها من جديد وصرخت بي

-غبية حقا يا فانية تظنين أن الأمر بهذه البساطة. !!!

!! -لم أفهم ما الذي تقصدينه بقولك هذا.

كانت قد خرجت من الغرفة الى باب آخر تشكل في الحائط فتبعتها لنعود من جديد إلى الخارج ..لذلك المكان الغريب حيث السماء الأرجوانية والرمادية والأرض التي تنبثق النار من فوهاتها ومشت حتى توقفت أمام النهر العظيم الأحمر اللون..

-هذه دماء الضحايا على مر التاريخ كل الدماء تجمعت لتصب مشكلة هذا النهر الكبير.

-وما شأني أنا به كل الذي أريد أن أعود بسلام الى عالمي.

-بمجرد أن وطئت قدماك هذه الأرض يا فداء كتبت عليك اللعنة مثلي.

اتسعت عيناي رعبا وأنا اسمع تلك العبارات التي تتفوه بها هذه المرأة ، اقتربت مني ولمست جبهتي بإصبعها مردفة:

-كتبت عليك لعنة أن تحلمي كل ليلة بمجرمة وهي تقتل وتسفك دماء ضحاياها ..ستتعذبين لعذابهم وستشعرين بما يشعرن به.. سيمر الوقت وستبدئين بالجنون شيئاً فشيئاً لأن تلك المشاهد المرعبة لن تنسيها حتى عندما تستيقظين من نومك ... ستبقى الأفكار تلاحقك أينما ذهبت.

-أرجوك ...ماذا فعلت لأستحق هذا الألم!!

قلتها بتلعثم وخوف وضياع فقاطعتني باسمة :

-بالحقيقة فعلتي

-و...ولكن

-أجهضتِ الجنين في بطنك قبل أن يرى النور ويخرج إلى العالم وكله بحجة انشغالك بالعمل..

كنت صحفية تكتبين عن حوادث القتل والانتحار بطريقة سلبية دون حتى أن تحاولي اكتشاف حقيقة الأمر ... كانت حيادية عملك هي هدفك الوحيد ، لم بكن بقلبك ذرة تعاطف واحدة لأحد الضحايا ولا فرق بين ضحية ومجرم برأيك ،حتى زوجك علاء قتلت روحه ومحبته لك بعدم اهتمامك واكتراثك له...

وقتلتني ...أنا نفسي قتلت على يديك ثلاث مرات وبطرق بشعة كذلك ..حتى السجينات اللاتي في المعتقل شاركت بقتلهن وكنت تتحججين بأنك لن تستطيعي تغيير التاريخ..

وبعد كل هذا ...تتساءلين ماذا فعلت.!!

انهرت على ركبتي وأنا ذاهلة حقا لا أستطيع الرد كانت الصور تتلاحق في عقلي وعادت بي ذاكرتي إلى الوراء ..عادت أخطائي تتجلى واضحة أمام عيناي،

كنت أظن أني امرأة صالحة ، كنت أنسى أو أتناسى أخطائي التي ارتكبها وأدفن نفسي في العمل ،

نظرت لها وهي تضحك ضحكتها الماجنة دون توقف ...تشكلت زوبعة سوداء واختفت المرأة من أمامي، صرخت بها أن عودي لا تتركيني وحيدة هنا!"

أظلمت الدنيا في عيني وأظلم قلبي وبقيت أصرخ وأصرخ وأركض كالمجانين في الأرجاء ولكن المنزل اختفى وكل شيء من حولي أصبح باللون الأسود ...السماء، الأرض، الفوهات التي يخرج الدخان منها ،كل شيء كان أسودا إلا نهر الدم مازال محتفظا بلونه...

جريت كالمجانين وكان صدى صوتي يتردد وكأني حبست في الفراغ حتى زلت قدمي ووقعت في نهر الدم ولم أعد أشعر بشيء بعدها.

فزعت اللعبة وصرخت عندما توهج الكتاب وتشكلت على صفحة من صفحاته لوحة ما ...اقترب علاء وشهق عندما رأى صورة زوجته ممددة بداخل تابوت حجري وعيناها تذرفان الدماء

وتحتها خريطة لمكان ما ...حمل الكتاب وخرج راكبا سيارته وفتح الكتاب ليستدل على المكان ..خفق قلبه بشدة وهو يبحث عن ذلك الكهف الغريب في المنطقة القريبة من منزل اللعبة.

ساعات من البحث المتواصل بين الطرق الترابية حتى لاحت له من بعيد غابة كثيفة الأشجار ترجل من السيارة وتابع المسير في هذا الظلام والكتاب بيده يضيء الطريق الصحيحة له حتى وصل لمدخل الكهف ..تلمس في الظلام ليصل إلى قاعة كبيرة جدا تتراقص النيران على مشاعلها، يتوسطها تابوت حجري قديم الطراز وخلفه تمثال شيطاني قبيح الهيئة تتناثر حوله الجماجم والبقايا البشرية المتعفنة، اقترب ببطئ من التابوت يحاول فتحه فرأى بضع كلمات مسح بيده التراب ليقرأ الجملة كاملة:

هنا يرقد الخلاص...

لعنة قلوب المظلومين تتناوب على ساكن هذا التابوت

طرد كل هذه الكلمات السيئة من رأسه وهو على يقين أن زوجته هنا، حاول أن يفتحه ولكنه موصد بإحكام.. تلمس كل شبر بهذا التابوت عله يجد ثغرة ما حتى رأى وجها شيطانيا منقوشا على رأس التابوت، مسح الغبار من عليه قبل أن يضغط بكل قوته ....فتوهجت عينا الرأس بلون أحمر قاتم وبدأ الغطاء بالتزحزح فأزاحه جانبا ورأى فداء مستلقية برداء أسود تضم يديها على صدرها ممسكة بكتاب مدبوغ...حملها خارجا وحاول إيقاظها حتى فتحت عيناها، رأته فبدأت بالبكاء بشدة، ضمها إليه بقوة وهو يمسح على شعرها ليحاول تهدئتها ولكنها كانت تصرخ.

وكأنها ظلت دهرا تتنقل من كابوس إلى آخر ..تركها ونظر إلى ذلك التمثال و بدأ بزحزحته حتى مال وتحطم لعشرات القطع، عاد إليها وحملها عائدا من حيث أتى..

دخلا المنزل فركضت اللعبة باتجاههما وتعلقت بقدم فداء التي حملتها وابتسمت لها بإنهاك قائلة :

ما الذي جاء بك إلى منزلي يا صغيرة ؟

-إنها قصة طويلة سيشرحها لك علاء.

ثم جلست على الأريكة وتنهدت بعمق ، في حين اخرج علاء الكتابين ووضعهما على الطاولة أمامه

-والآن هيا يا رأس اللعبة فلتنهي هذا الأمر لترقدي بسلام فقد أوفت فداء بوعدها وقدمت الكثير لك"

تلمست اللعبة يد فداء وقالت لها بخفوت :

-سام أنا آسفةٌ حقاً ...لم أكن لأتوقع أن هذا كله سيحصل، كنت أفكر بطريقة للخلاص

ولكنك دفعت الثمن"

-شش" قالت فداء للعبة ثم أردفت بابتسامة : هيا أيتها الصغيرة ،كنت أود مساعدتك ومهما كلفني الأمر وها أنذا أقدم لك الكتابين فلترتبي صفحاتهما ولتقرئي التعويذة لتتحرر روحك و لا تفكري بشيء آخر الآن"

أومأت لها اللعبة وأمسكت الكتابين وبدأت بقراءة تعويذة فبدأت الوريقات تطير وترتفع في سماء الغرفة قبل أن تجتمع بشكل مرتب في الكتاب الأسود فتوهج وخمد فجأة ،أمسكته وبدأت بتقليب الصفحات حتى وصلت لصفحة معينة قائلة:

-فداء ستقرئين هذه الصفحة عندما نصل إلى حيث دفن جسدي وبعدها سأنام في سلام وستكون مهمتك قد انتهت"

في صباح اليوم التالي كانت السيارة تشق طريقها نحو هدفها ، وقفت أمام منزل اللعبة الذي تحول الى خراب بسبب الحريق ثم ترجلوا من السيارة ومشت اللعبة إلى حيث تم دفن جسدها وأشارت إلى علاء الذي أخرج الرفش وبدأ بالحفر لإزاحة التراب حتى بانت العظام وكانت فداء آنذاك تحفر على بعد عدة أمتار لإخراج الجمجمة الصغيرة.

طال الوقت وأشرفت الشمس على المغيب فحملت اللعبة جمجمتها وسارت ببطئ ووضعتها في حفرة العظام واستلقت على التراب قائلة لهما بامتنان بالغ :

-لن أنسى صنيعكما هذا أبدا....شكرا لكل شيء فعلتماه لأجلي " ابتسمت لهما وأغمضت عيناها باطمئنان.

فتحت فداء الكتاب دامعة العينين وقرأت التعويذة المطلوبة فخرج شعاع أبيض من جسد

اللعبة وتلاشى في الأفق ، وضع علاء اللعبة الساكنة فوق العظام ودفنهم سويا ثم أحضر حجرا ووضعه كشاهدة على القبر لتنتهي مأساة هذه الصغيرة ولتبدأ مأساة أخرى

أنا فداء .....الصحفية، العنيدة، المعذبة

عانيت كثيرا بسبب اللعنة التي كتبتها الساحرة علي ، كنت أخاف النوم بسبب الكوابيس الشنيعة التي تطاردني ليل نهار، لم تبقى سفاحة عبر التاريخ إلا ورأيت جرائمها ولا ساحرة حمقاء إلا حلمت بها، ولم تنفع معي كل المهدئات التي تناولتها ،وبالتالي لم أعد قادرة على العمل بسبب الإرهاق المعاناة التي دمرت كياني ، وبالرغم من هذا أدركت كم كنت مخطئة بحق علاء وبحق نفسي ، كان عذابي كنوع من التكفير عن أخطاء الماضي وهاأنذا أحاول إصلاح ما هدمته السنون ، وتفاجأت بمدى طيبة زوجي وصفاء قلبه ومساعدته لي ومساندته التي لن أنساها ما حييت.

رأيت حنانه وعطفه من جديد ...محبته التي أزلت من عليها غبار الزمن لتتأجج أكثر، وبيوم من الأيام اقترح علي أن أستغل كل الذي أراه في نومي من ألم ومعاناة و أجسده في كتاب لعلي افرغ قليلا من الطاقة السلبية التي اعترتني وسيطرت على كياني.

وبدأت الكتابة بحماس وقوة ، قصة وراء أخرى وكتاب وراء آخر وأخر وفعلاً بسبب مساندته لي ومحبته تغلبت على اللعنة.

والفت سلسلة روايات أسميتها (لعنة حواء)

نجحت وأصبح عشاق الرعب والخيال يتداو لونها بكثرة بالرغم من انتقاد البعض على حد قولهم، حوادث مبالغ فيها ولا يمكن أن تكون الزهرة اللطيفة بهذه الوحشية!!!

-كنت أبتسم وأقول نعم ....يبدو أني بالغت قليلا فلتعذروني على خيالي الجامح!

تمت

دار أركان للنشر

2020